

الملوك والأسياذ في الشعر الجاهلي
دراسة في ضوء علم الميثولوجيا

د. حمود الدغيشي *

تاريخ القبول: ٢٠٠٨/٣/١٩

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٧/١١/١٩

ملخص

يناقش البحث نظرة الشعوب عامة، والعرب خاصة إلى ملوكهم وأسيادهم، تلك النظرة التي تشتمل في جانبها النظري والفلسفي على قسمة عقيدة؛ ذلك أن الملك أو السيد - في اعتقادهم - الوريث الإلهي، ويتمتع بالمزايا نفسها التي يتمتع بها الإله في دينهم قبل الإسلام، واعتقدوا بامتلاكه قوة خارقة تميزه عن بقية البشر، فظهرت الأساطير التي تمجد هذا الملك أو السيد، تصاحبها طقوس معينة تثبت دعائهم، منها أسطورة الحمى الذي يحرم على الآخر انتهاكه، وأسطورة صانع المطر من خلال الاستسقاء بالملك أو السيد، وأسطورة الشفاء من خلال جسده ودمه الشريفين، كما اقترن السيد بالإله القمر (ود) الذي كان معبود العرب عامة، ورمزه الثور، ومن ثم نجد أسطورة الموت وتعظيم العرب قبل الإسلام لقبور ساداتهم واتخاذها أضرحة، ليستشيروا موتاهم في أمور حياتهم. ولقد ظهرت هذه الأساطير والطقوس في الشعر الجاهلي كافة، بشكل لافت للنظر، فتناولها البحث بالوصف والتحليل.

Abstract

Kings and Masters in Pre-Islamic Poetry

Dr. Hummoud Aldgeshi

This research discusses the way nations in general glorify their monarchs and leaders. As for the Arabs, the Arabs, monarchy and leadership is not only legally but also divinely inherited. The leaders used to have divine privilege. Leaders have unlimited power that to make them different from other people. Mythology held that leaders were glorified by performing certain ritual. Among these rituals was a taboo prohibiting people to violate. There is also the legend of the rain maker which is performed by seeking rain fall through the monarchs or leaders. There legend of recovery from an illness by touching a noble body or blood of a monarch or a leader, as they are connected with god - like moon (wadd) which looked like a bull and was also worshipped by all the Arabs before Islam. Another legend is that of glorifying the dead of a monarch or leader and their graves. They used to consult the dead and sought their opinion of about their own worldly affairs. These ritual and legends appeared very clearly in all the per-Islamic poems and they were all narrated in all of the per-Islamic poems and well - researched and analyzed in many Arabic like any books.

* قسم اللغة العربية، كلية التربية بالرباط، سلطنة عُمان.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

حظي الإنسان (الذكر) في التاريخ الإنساني القديم ؛ بالتقديس بعد الثورة الذكورية التي قام بها على أنقاض الآلهة الأنثوية، على الرغم من استمرار عبادة الأنثى لفترة متأخرة، لكن مكانتها ظلت دون مكانة الذكر في الفترات المتقدمة، وأصبحت الشعوب القديمة تنظر إلى الرجل الملك والسيد والشريف نظرة قدسية، يحلّ إلهاً تارة، ووسيطاً بينها وبين الإله تارة أخرى وهي نظرة ميثولوجية تختزل عقائد أمنت بها، وطقوسا مارستها، ولما كان الإنسان القديم يجهل مصدر الخير والشر، ومصدر النور والظلام، ومصدر الغيث والجذب، اعتقد في الإنسان الآخر المتميز عنه بالقدرة المادية والمعنوية مصدرأ لهذه جميعها، وشرع في نظريته ينسج إلهاً ووسيطاً لهذه المصادر، وليس أدلّ على ذلك من تلك الممارسات التي كان يقوم بها، إذا عترض سبيله الجانب الشرير، أو أصاب سبيله الجانب الخيسر.

ولعلنا نجد أمثلة كثيرة على أن الذكر كان يحتل تلك المكانة المقدسة عند الشعوب في الحضارة المصرية على سبيل المثال، ومن ذلك أن (جب geb) كان إلهاً ذكراً يمثل الأرض، وكان ملكاً قبل مجيء المخلوقات البشرية، ومن ذلك كانوا يطلقون على فرعون اسم " وارث جب" (١)

وكان الملك بالنسبة للمصريين مركز الوجود كله، لأنه كان ذاتاً بشرية ومقدسة في الوقت نفسه، كما كان حلقة الاتصال بين هذا العالم والعالم الآخر.. وعُدَّ " الملك " الصورة الحية على الأرض " للإله شمس"، وامتلك ثروته امتلاكاً رمزياً.. فيجب على كل من يتقدم من فرعون أن يطرح نفسه على الأرض، فيشمّ الأرض ويزحف عليها، ويتضرع إلى ذلك الإله الكامل ويمتدح جماله... كما كانت الحياة والموت ملكاً للملك يعطي الصحة لمن يشاء.. (٢)

وفي القرآن الكريم دليل على تلك الألوهية التي كان يدعيها فرعون مصر، قال تعالى: ﴿ فَحَسْرَ فَنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٣) وقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ .. مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي.. ﴾ (٤) وفي المعتقدات الإغريقية، كان الملوك أنفسهم هم الذين يقدمون كل قرابين الدولة في أسبوطية، على اعتبار أنهم من نسل الآلهة (٥).

ويرى فريزر أن الألوهية التي كانت تحيط بالملك لم تكن مجرد صورة لفظية جوفاء، وإنما كانت تعبيراً عن اعتقاد راسخ متين. فقد كان الملوك يُقدسون في كثير من الحالات... باعتبارهم آلهة وأرباباً قادرين على أن يمنحوا أتباعهم البركات التي يظن على العموم أنها تتجاوز طاقة البشر الفانيين.. ومن هنا كان الناس كثيراً ما يتوقعون من ملوكهم أن يرسلوا عليهم المطر، أو ضوء الشمس في الموسم المناسب وأن يساعدوا على نمو المحاصيل وما إلى ذلك (٦).

وهذه الاعتقادات والممارسات تظهر كثيراً عند الشعوب القديمة مثل سكان إفريقيا، ومن تلك الشعوب، شعوب تسكن جنوب شرق أفريقيا، إذ إنهم كانوا لا يعبدون الأصنام ولا يعترفون بأي إله، لكنهم بدلاً من هذا يعظمون ملكهم ويقدسونه ويعنونه إلهاً مقدساً (٧).

(١) بوزنر، جورج وآخرون، معجم الحضارة المصرية، ترجمة، أمين سلامة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م، ص ١٢٢.

(٢) انظر: بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية، ص ٢٢٥ و ٢٥٦ و ٢٥٧.

(٣) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٤) سورة القصص، الآية ٣٨.

(٥) فريزر، جيمس، القسن الذهبي، ترجمة، أحمد أبو زيد وآخرون، ج ١، ص ٩٧.

(٦) المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٤٨.

كما يعظم اللوانجو (loangu) ملكهم كما لو كان إلهاً، ويطلقون عليه اسم (الرب)، ويعتقدون أنه يستطيع أن ينعم بالمطر حيث يشاء. كما أن أحد ملوك بورما يؤمن أشد الإيمان بأنه شخص لا يطاله الموت، وعلى هذا الأساس بدأ يستبعد جانباً لقب الملك ؛ ويتجه نحو جعل نفسه إلهاً^(١).

أما قضية المطر فتحتل مساحة كبيرة من اعتقادات الشعوب القديمة، إذ نظرت غالبيتها إلى هذا الماء المنحدر من أعالي السماء نظرة قدسية، واعتقدوا فيه الحياة، واعتقدوا في صانعه قدسية عظيمة، وغالباً ما يكون صانع المطر الملك أو رئيس القبيلة أو سيدها الذي يتمتع بقدرة هائلة تميزه عن الآخرين؛ ولذا كان من أهم الأمور أن ترتبط هذه الوظيفة القدسية بالملك^(٢).

ومن هنا كانت العادة في إفريقيا الوسطى أن يكون صانع المطر عندهم أحد الرؤساء^(٣)، كما يؤمن أهالي منطقة (نيانزا) بأن المطر لا يسقط إلا بممارسة السحر، وأن مسؤولية صنع المطر تقع على عاتق رئيس القبيلة^(٤).

ويشير (فريزر) إلى أن الروايات القديمة تجعل القدره على صنع المطر من أهم الأمجاد الرئيسية التي يمكن أن تنسب إلى الرؤساء والأبطال القدامى، ومن الجائز أنها كانت هي أصل نظام الرياسة^(٥).

وبالمقابل كان الملك يتمتع بقدرته على شفاء المرضى، كما هو عند اعتقاد بعض الشعوب من أن الملوك يمكنهم أن يشفوا الدرن الخنزيري بلمسة منهم، ولذا كان هذا المرض يعرف باسم "داء الملك"^(٦)، وقد تمكن أحد الملوك من شفاء مائة مريض بإشارة واحدة، كما زاد ملك آخر بشفاء مائة ألف مريض باللمس^(٧). وليس ذلك حسب بل إن الملك - كما تعتقد بعض الشعوب - يمتلك بعض القوى الإعجازية أو الفائقة للطبيعة، فيؤثر على نمو المحاصيل وإثمار أشجار الفواكه^(٨).

وليس بالضرورة أن تكون هذه الاعتقادات في حياة الملك أو الزعيم، بل إنها تظل مصاحبة له حتى في مماته، فيقدس قبره، ويرجى من صاحبه الرحمة والنعمة، وفي قرية كالبنجوا يصب أهالي القرية الماء على قبر أحد زعمائهم المشهورين وهم يقولون "أيها الجد، ارحمنا.. إن كانت مشيتك أن نطعم هذا العام فأعطنا المطر"^(٩).

وهذا الأمر يقوينا إلى قضية عبادة الموتى، وقد انتشرت هذه العبادة عند الشعوب القديمة، فلم يكن الملك أو السيد عندما يغادر الدنيا يأفل نجمه، بل إن نجمه يظل، وتلك البركات والنعمة التي تغنق على الشعوب ما هي إلا من بركات الملك أو السيد الميت فتقام الطقوس لإنزال المطر، ولما كان الملك في الحضارة المصرية إلهاً في حياته، فقد كان إلهاً بعد موته أيضاً، ينتقل إلى السماء، ويخلفه إله من صلبه على الأرض، ويفضل الفراعنة تخصب الأرض، وينبت الزرع، ويجري النيل^(١٠).

(١) فريزر، الغصن الذهبي، ص ٣٥٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٦) المصدر السابق، ص ٣٢٥.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٢٦.

(٨) المصدر السابق، ص ٣٢٢.

(٩) المصدر السابق، ص ٢٧٢.

(١٠) الخطيب، محمد، الخلود في حضارة مصر القديمة، ط١، دار طلائع، دمشق ١٩٩١م، ص ٨٠.

ووضعت المعتقدات الجنائزية المصرية جميعها أصلاً لأجل الملك، ووجدت تحقيقها اللاهوتي في طبيعته الإلهية، فبالنسبة للقبور يبقى فرعون بعيداً عن غيره في العالم الآخر شأنه في هذا العالم شأنه على الأرض، فينفرد بدار فخمة، ويكون معادله السماويون أقرب إليه دائماً من رعاياه^(١).

وكان القبر أقرب ما يكون إلى بيت تسكنه الروح أو تقود إليه من وقت لآخر للتزود بالطعام، أو استخدام الأدوات وما إليها من الهدايا الجنائزية^(٢).

كما تحفل المعتقدات الإغريقية بعبادة الموتى، فقد كان الإغريق يعتقدون بأن الموتى يجب دفنهم، ولذلك كان الرعب يأتي من عدم دفن الميت وتعرض جثته في العراء لنهب الحيوانات والتفسخ، كما تحفل ملحمة الإلياذة والتراجيديات الإغريقية بالكثير من المشاهد الدالة على تقديس الموتى وعبادتهم، حيث الاعتقاد الراسخ في حاجة الموتى إلى الطعام والشراب التي توضع أو تسكب على القبر لكي تستمر حياة الميت كما حياة الحي^(٣).

ومن تلك الممارسات الطقسية لعبادة الموتى، ما يقوم به صائغ المطر في نيوكاليدونيا؛ إذ يدهن جسمه باللون الأسود ويخرج من أحد القبور جثة شخص ميت ويحمل العظام إلى الكهوف.. ثم يصب عليها الماء فتحوله إلى مطر مرة ثانية من السماء^(٤). وكثيراً ما تستعطف قبائل التورادجا الموتى من أجل الحصول على المطر^(٥).

وروي الكلبي أن بنى شيث عبدت جسد آدم وعظمته وترحمت عليه^(٦)، ولم تكن شعوب الجزيرة العربية بمنأى عن تلك العبادات والطقوس فقد بلّت النقوش والآثار على تقديس الملوك والأسباط وعبادتهم، إذ ظهر في بعض مناطق الجزيرة العربية، لوحة جدارية، تشمل رسوم أربعة أشخاص، رجلين وامرأتين.. ويحتمل أنهم آلهة وهم يواجهون جهة الشرق^(٧).

وعثر على بعض القطع النقدية حوت مشهداً مصمماً بإتقان لشخص برأس مستطيل جالس على عرشه...^(٨) وهناك عملات تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، عثر عليها في (تاج)، ومنها عملة للملك أبي يشع، وهناك عملة للملك أبي أيل^(٩).

ولا يمكن أن نفهم احتواء العملة على صورة لرجال وملوك إلا في إطار فكرة التقديس التي قد تصل إلى العبادة. وقد اكتُشف في الجزيرة العربية أيضاً نقش ينتمي إلى خط المسند الجنوبي، وقد نُقش عليه اسم "اسار" ملك القبايل وهو الوسيط الذي يطلب الرحمة من الإله، ويظهر من النقش مظاهر الولاء والطاعة للملك؛ إذ أراد الكاتب من النقش — كما ترى الدراسة التحليلية الأثرية — التأكيد على أن الدم الذي أريق ربما قدم للملك "اسار" ملك

(١) بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) فراين، البوواح، الرحمن والفيضان، ط ٢، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠١، ص ٦٥.

(٣) الهياضي، خزف، المعتقدات الإغريقية، ط ١، دار الشروق، عمان ٢٠٠٤، ص ١١٤.

(٤) فريزر، الفصحى الذهبي، ص ٢٧١.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٦) الكلبي (السائب، هشام بن محمد ٢٠٦هـ/ ٨٢١م): الأصبهان، تحقيق: أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، ص ٥١-٥٠.

(٧) الكياوي، عبد الرحمن وآخرون، تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة (أبها - جازان)، ع ١٥٤، ق ٢، أطلال، السعودية ٢٠٠٠م، ص ١٠٣.

(٨) قزير، محمد صالح وآخرون، تقرير عن أعمال ونتائج الموسم الأول لحفيرة تاج، ع ٨، ق ١، ص ٧٣، أطلال، السعودية ١٩٨٤م.

(٩) المصدر السابق، ص ٧٥.

القبائل وذلك عرفانا بالجميل لما قدمه لابن ولده بترويدة بالماء^(١).

وورد في نقوش الحجر النبطية وصايا أشخاص بدفنهم في قبور، وإنذار من يحاول تخريب القبور ونهبها، بحلول لعنة الآلهة، وغرامة للملك المعظم، ولعل هذه الوصايا تظهر جانباً من الحياة الاجتماعية والدينية السائدة عند الأنباط، وتلاحظ قدسية الملك من خلال النقش إذ يرتبط اسم الملك (حارثة) بـ (ذي الشرى) الإله المعبود^(٢):

- ١ - هذا للحد، الذي عملت وشوح بنت.
 - ٢ - بجزت لنفسها بداخل المقبرة (هي) لها ولا بنتها.
 - ٣ - والذي سيفتحة أو يخرجهما.
 - ٤ - من اللحد هذا إلى الأبد فليكن معه (فليحضره معه) لسيدنا.
 - ٥ - حارثة ملك نبط محب شعبه ألف قطع حارثية.
 - ٦ - ويلعن ذو الشرى إله سيدنا والآلهة كلهم.
 - ٧ - من يخرج وشوح هذه من اللحد هذا إلى الأبد.
 - ٨ - وشهد على هذه اللعنة (للعنات) الآلهة كلهم...
- وفي نص آخر نجد أن الغرامة موزعة بين الملك وبين الإله (ذي الشرى) بالتساوي^(٣):
- فليكن معه (فليحضر معه) (ذو الشرى) (مقدار) ثلاثة آلاف
- قطع حارثية ولسيدنا
- حارثة الملك مثلها،.....

وقد انتشرت الطقوس الجنائزية في الجزيرة العربية، وعثر في مدافن القبور على أوانٍ للطعام والشراب، وكسر فخارية، وأطباق متنوعة للترايبين، كما عثر على الأحجار الكريمة في تلك المدافن^(٤).

ومن الأخبار التي تُروى عن تقديس شعوب الجزيرة العربية لملوكهم وتعبدهم لها، ما روي من أنه كان لبقياس ثمود ملك حسن السيرة، فلما مات شق عليهم ذلك فضرَبوا حجاباً بينهم وبينه، ونصبوه صنماً لا يأكل ولا يشرب، وجعلوه إلهاً لهم^(٥). ولعل هذا الحزن الذي قاد إلى عبادة الملك يلف بنا إلى قضية الأصنام عند العرب في العصر الجاهلي، ومن هذه القضية قصة الأصنام الخمسة (ود، ومِزَاب، ويغوث، ويعوق، ونسر) التي تذكر الرواية أنهم كانوا في الأصل قوماً صالحين فماتوا، وحزن عليهم قومهم، فصنعوا تماثيل على أشكالهم وعكفوا عليها عابدين^(٦). وإذا تتبعنا أصنام العرب، وجدنا عدداً منها غير يسير يشير إلى شكل رجل كان ملكاً أو سيدياً يرمز إلى آلهة

(١) الكباوي وآخرون، تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة (أبها - جازان)، ع ١٥، ص ١١٣.

(٢) الذيب، سليمان عبد الرحمن، نقوش الحجر النبطية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٨م، ص ٢٢٨.

(٣) الذيب، نقوش الحجر النبطية، ص ٢٥٤. وانظر المناصفة، ص ٢٧٦-٢٧٧ و ص ٢٩٧.

(٤) انظر: الكباوي وآخرون، تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة (أبها - جازان)، ع ١٥، و ع ١٩، ص ٣٢٢-٣٢٥. و هاشم محمد اسكروبي وسيد رشاد أبو العلا، حفريات تاج، الموسم الثاني، ع ٩٦، ق ١، ص ٤٣، أطيحي، السعودية ١٩٨٥، ص ٤٢ ولآلدر وآخرون، تقرير عن أعمال وإنتاج الموسم الأول لحفريات تاج، ع ٨، ص ٣٢ و ص ٣٧-٣٩ و ص ٤٣-٤٤، ١٩٨٤.

(٥) ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م): نشوة إيطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، ج ١، مكتبة الأقصى، عمان ١٩٨٢، ص ٤٩.

(٦) انظر: الكلبي، الأصنام، ص ٥١، والطبرسي، أبو علي الفضل بن حسن (القرن السادس): مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، وفضل الله الزبدي الطباطبائي، ج ١، دار المعرفة، بيروت، ص ١٠٨.

يتعبدونها على الرغم من اختفاء قصصها الأسطورية، ولعل وجود هذه التماثيل في العصور القديمة فيما يتعلق بالجزيرة يدلّ دلالة قاطعة على تقديس الإنسان للملوك والسادة الذين كانوا يمثلون آلهة أو أنصاف آلهة أو وسطاء بين الناس والآلهة، وقد عثروا في الجزيرة العربية على تماثيل من حجر كلسي يمثل رجلاً عارياً^(١). لعلّه يمثل إلهاً مقدّساً عندهم يشير إلى الجنس والخصوبة. ومن هذه الأصنام التي كانت تمثل رجلاً معبوداً عندهم (هبل) وكان لقريش، من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أتركته قريش فجعلت له يداً من ذهب تعظيماً لسه. وبلغ من تعظيمهم له أنهم إذا شكوا في مولود، أهدوا له هدية، ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج: صريح الحقوه؛ وإن خرج: ملصق دفعوه.. وهو الذي يقول له أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد: أعلّ هبل^(٢).

وكانت قريش تلوذ به وتتوسل إليه، ليمنّ عليها بالخير والبركة، وليدفع عنها الأذى وكل شر^(٣).

وكان قريانه مائة يعير، وله حاجب يقوم بخدمته^(٤).

وقد ورد اسم (هبل) في الكتابات النبطية التي عثر عليها في الحجر... وقد تسمّى به أشخاص وبطون من قبيلة كلب، مما يدلّ على أن هذه القبيلة كانت تتعبد له^(٥).

وتعبدت بعض قبائل العرب للصنم (ذي الكفين)، ويبدو من اسمه أنه كان على هيئة إنسان (رجل)، وهو الذي يقول فيه الطفيل بن عمرو الدوسي بعد أن حرّقه بأمر من الرسول (ص)^(٦):

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلاننا أكبر من ميلانكا

إني حشوت النار في فؤادكا

أما الصنم (مناف) فقد كان إلهاً معبوداً عند عرب الشام، وقد حُفرت صورته على الحجر على هيئة رجل لا لحية له يتحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعي المرموز به إلى الآلهة شمس، وبه سُمّي عبد مناف^(٧). ويصادفنا كذلك الصنم "نو الرّجل" من أصنام الحجاز^(٨)، ويبدو من اسمه أنه كان على هيئة رجل.

وكان لصنم الفلّس - وهو صنم تعبدته طيء - أنف أحمر.. كأنه تمثال إنسان، وكانوا يعبدونه، ويهدون إليه ويعترون عنده عتائهم، ولا يأتيه خائف إلا أمن ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت ولسم تخفّر حويته^(٩).

أما الصنم "ود" فقد تعبدّه اللحيانيون والثموديون، ورمز إليه العرب الجنوبيون بصورة رأس ثور، وهو إله عام له شهرة عند العرب، وقد عمّت عبادته جزيرة العرب كلها، وقد بقي معبوداً حتى الإسلام، وأقيم له صنم في دومة

(١) انظر: دانيال ت بوتس، الخليج العربي في العصور القديمة، ترجمة: إبراهيم خوري، ج ١، المجمع النقشافي، أبوظبي ٢٠٠٣م، ص ١٤٧، ص ١٨٨. كما عثر على ختم من فخاريات الألف الثالث المتأخر يحوي وجه صورة إنسان، المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٢) الكلب، الأصنام، ص ٢٧-٢٨.

(٣) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ط ٢، بغداد ١٩٩٣م، ص ٢٥٢.

(٤) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٥١.

(٥) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٥٣.

(٦) الكلب، الأصنام، ص ٢٧.

(٧) انظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٨) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٨٣.

(٩) الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله باقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣١٠.

الجنل، صنع على هيئة إنسان^(١).

لعل هذه الأصنام والتماثيل تشير في مدلولاتها إلى آلهة سماوية أو ملوك أو أسياد، اعتقدوا فيها البديل للإله السماوي، فالأخبار والروايات والأشعار تشير إلى ذلك التقديس للملوك والأسياد، ولعل في أسماء بعض الملوك إشارة إلى هذا التقديس، ومنه المنذر بن ماء السماء والمحرّق، والنعمان: وهو في الأصل اسم من أسماء الدم^(٢). وقد افتخر الشعراء الجاهليون بهؤلاء الملوك، كما نلاحظ في أشعار عامر بن الطفيل^(٣):

ولا لك في حيّي بكيل وحاشد نصيب ولا رباك في الملك حمير

وقال^(٤):

أو بني آكل المرار ولا صيد بني جفنة الملوك الطوال
وابن ماء السماء قد علم النسا س ولا خير في مقالة غالي

وقوله أيضاً يذكر المحرق والنعمان واللخمى، والإتاوة التي كانت تؤديها قبائل العرب للملوك^(٥):

فخروا عليّ بحنوة لمحرّق وإتاوة سبقت إلى النعمان
ما أنت وابن محرق وقبيلة وإتاوة اللخمى في غيلان

أما الممزق العبدى فيستعطف عمرو بن هند ويمدحه قائلاً^(٦):

تروح وتندو ما يحلّ وضينها إليك ابن ماء المزن وابن محرق
علوتم ملوك الناس والمجدو النقي وغرب ندى من عروة العز يستقي
وأنت عمود الذين مهما نكل يكل ومهما تضرع من باطل لا يلحق

وما تبقى من أخبار العرب وأشعارهم يدل على أنهم كانوا ينظرون في فترة متقدمة إلى ملوكهم نظرة قدسية، وعلى أنهم آلهة أو من نسل الآلهة، فأطلقوا عليهم لفظة (الرب).

"وقد كانوا يخاطبون ملوكهم بالأرباب"، قال الشاعر^(٧):

وأسلمن فيها رب كندة وابنة ورب معد بين خبت وعرعر

ويقول الأعشى مادحاً^(٨):

(١) انظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦، ص٣١٤-٣١٥. وانظر: الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١٠، ص١٠٨.

(٢) المماري، فضل، "السموال" الأسطورة والمجهول، ع٢١، حواشي الآداب والمعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، الكويت ٢٠٠١م، ص٢٧.

(٣) عامر بن الطفيل، ديوانه، تحقيق: أنور أبو سويلم، ط١، دار الجيل، بيروت ١٩٩٦م، ص٣١٢.

(٤) المصدر السابق، ص٣٧٩.

(٥) المصدر السابق، ص٣٩٦.

(٦) الأصمعي، عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦هـ/٨٣١م): الأصمعيات، تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط٥، دار المعارف، مصر، ص١٦٦.

(٧) ابن فارس، أبو الحسين زكريا (ت ٣٩٦هـ/١٠٠٤م): الصحاح في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: عمر فاروق، ط١، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٩٣م، ص٩١.

(٨) ميمون بن قيس، ديوانه، تحقيق: محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر، ص٢٢٩.

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يَكْتُرُ نِعْمَةً وَإِذَا يَنَاشِدُ بِالْمَهْمَارِقِ أَشْدَا
ويقول عدي بن ربيعة يرثي أخاه كليباً سيد قبيلة تغلب^(١):

قَتَلُوا رَبَّهُمْ كَلِيباً سَقَاهُماً ثُمَّ قَالُوا مَا إِنْ خَافُ عَوِيلاً

وهذا السيد "الرب" هو امتداد موروث للشمال السامية، على نحو ما صورته النابغة الذبياني في مديحه للنعمان بن وائل الحلاج الكليبي، حين قال^(٢):

تَخَبُّ إِلَى النِّعْمَانِ حَتَّى تَنَالَهُ فَذَى لَكَ مِنْ رَبِّ طَرِيفِي وَتَالِدِي
وفي قوله أيضاً^(٣):

حَيَّاكَ رَبِّي فَإِنَّا لَا يَحِلُّ لَنَا لَهْوُ النِّسَاءِ وَإِنْ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا

وقال النابغة الذبياني يرثي الحارث بن أبي شمر بن حجر بن الحارث بن جبلة الغساني، ويذكر (حارث) وهو مكان بجولان، وكيف أنه أصبح موحشاً بعد فقد الرب (الحارث)^(٤):

بَكَى حَارِثُ الْجَوْلَانِ مِنْ فَقْدِ رَبِّهِ وَحُورَانُ مِنْهُ مُوحِشٌ مُتَضَائِلُ
وكان يقال لحنيفة بن بدر الفزاري "رب معد" في الجاهلية^(٥).

ويذكر امرؤ القيس الرعية من الناس، على أنهم عبيد لأربابهم، ويقصد بالأرباب آباءه، يقول^(٦):

مَا يَنْكَرُ النَّاسُ مَنْ أَحِينَ نَمْلُكُهُمْ كَانُوا عِبِيداً وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابُهَا
نَحْنُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ لَنَا مَلِكٌ بِهِ عَاشَ هَذَا النَّاسُ أَحْقَابَا
إِنِّي سَأَمْلُكُكُمْ بِالرُّومِ إِذْ كَرِهْتُ غَسَّانُ نَصْرِي وَكَانَ الْمَلِكُ أَسْبَابَا
أَوْ تَرْجُمُونَ كَمَا كُنْتُمْ لَنَا خَوَلَا حَتَّى يَدِينُوا لَنَا صَوْعاً وَإِتْعَابَا

وتشير بعض الأمط الأسلوبية المتكررة في بلاط الملوك والسادة إلى طقس بلاطي يؤديه العرب، أمام هؤلاء الملوك والسادة، ومن ذلك "أبيت اللعن" وهي كلمة كانت العرب تحبب بها ملوكها، أي أبيت أيها الملك أن تأتي ما تسعلن به وعليه، وقيل معناه لا فعلت ما تستوجب به اللعن^(٧)، ولعل "أبيت اللعن" تحية مختصة بلخمس وجذام بالحيرة^(٨)، يقول النابغة الذبياني مخاطباً النعمان بن المنذر ملك الحيرة ومعتزراً^(٩):

أَتَانِي أَيْبَتُ اللَّعْنِ أَنَّكَ لَمَتَّنِي وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتُمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ

وقوله^(١٠):

(١) عدي بن ربيعة، ديوانه، تحقيق: أنطوان محسن القوال، ط١، دار الجيل، بيروت ١٩٩٥، ص ٦٥.

(٢) زياد بن معاوية بن ضباب، ديوانه، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٦م، ص ١٩٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٥) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت ١٥٨هـ/١٢٤م): مجمع الأمثال، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، ج ٢، ص ١١٠.

(٦) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، ديوانه، تحقيق: أنور أبو سويلم ومحمد الشوايكة، ج ٢، ط ١، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين ٢٠٠٠م، ص ٦٩٤.

(٧) الزبيدي، محمد مرتضى الصبلي (ت ١٢٥٠هـ/١٧٩٠م): تاج العروس، مادة: لعن، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، الكويت ٢٠٠١م.

(٨) انظر: أحمد كمال زكي، التفسير الأسطوري للشعر القديم، ج ٣، فصول ١٩٨١م، ص ١١٦.

(٩) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٥٤.

(١٠) المصدر السابق، ص ١٦٥.

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامح

وقوله^(١):

هذا الشاء فإن تسمع به حسنا فلم أعرض أبيت اللعن بالصنف
وفي قول المتقّب العبدي، يمدح عمرو بن هند^(٢):

فأنعم أبيت اللعن أنك أصبحت لديك تكيز كهلها ووليدها
وعند علقمة بن الفحل مخاطباً الحارث بن شمير الغساني^(٣):

إليك -أبيت اللعن - كان وجيفها بمشتبهات قولهن مهيسب

"ولعلها في دلالتها على تطهير "الملك الحبري" مما يلعن عليه - وكثيراً ما حمل أسباب اللعن كالفسوة والفصام - يبين لنا أن الشاعر في بلاط الحيرة يكون دائماً منفوعاً إلى أن يموت نفسه بمثل "أبيت اللعن"^(٤).

أسطورة الحمى:

لعل ظاهرة "الحمى" من أبرز مظاهر التآليه والتقديس التي خص بها هؤلاء السادة والملوك، والحمى الموضوع الذي يحمى، ويخصص بالإله أو المعبود أو الملك أو سيد القبيلة، والمكان الذي يحيط بالمعبد، فيكون حرماً آمناً لا يجوز لأحد انتهاك حرمة^(٥).

وتقابل كلمة الحمى في المصطلح الأجنبي "التابو" والمقصود بها على العموم الأشياء المقدسة التي يحظر على الناس الاقتراب منها خشية تنديسها مما يعرض الشخص نفسه للخطر وللنداسة الشعائرية^(٦).
"و معنى التابو، ذلك الذي ينتمي في المجتمعات البدائية للقوانين الطقوسية الخالصة الملحوظة بالملوك والرؤساء"^(٧).

ولعل الحمى في أصله القديم للإله المعبود، أحيط بهالة قدسية، فلما كان الملك أو سيد القبيلة محاطاً بهذه الهالة القدسية كما أحيط بها الإله، أصبح الأخير بمنزلة الإله المقدس لا يجوز لأي كان انتهاك حرمة. فإذا أعجب الملوك بأرض أو بعشب أعلن حمايته لتلك الأرض أو لتلك العشب، فلا يسمح عندئذ لأحد بدخول "الحمى" أي المكان المحمي دون الملك أو الشخص المخول من الملك بهذا الحق، ويدخل في هذا الحق حماية الحيوان والنبات، وكسان ملوك الحيرة يحمون الأرضين والحيوانات كالإبل والخيول والكلاب، فتكون لهم لا يسمحون لغيرهم بالانتفاع منها^(٨).
ويقال إن شقائق النعمان منسوبة إلى النعمان بن المنذر؛ إذ خرج النعمان إلى "الظهر"، وقد اعتم نبتة من بين أحمر وأخضر وأصفر، وإذا فيه من هذه الشقائق شيء كثير، فقال، ما أحسنها! أحموها. فحموها، فسُميت شقائق النعمان^(٩).

(١) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٨٨.

(٢) عائد بن محسن، ديوانه، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، ١٩٧١م، ص ١١٦.

(٣) علقمة بن عبدة بن النعمان، ديوانه، تحقيق: لطفي الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، ص ٤٠.

(٤) زكي، أحمد كمال، التفسير الأسطوري للشعر القديم، ص ١١٦.

(٥) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٣٠٠.

(٦) فريزر، الغصن الذهبي، ج ١، الحاشية ص ١١٤.

(٧) عبد الحكيم، شوقي، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ج ١، ص ١٥٣-١٥٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

(٨) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٥٦.

(٩) ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م): المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، ص ٦١٠، ط٤، دار المعارف، مصر.

وقد بلغ من تعظيم " بني بغيض " لسيدهم مرة بن عوف حدّاً " أن بنوا له حرماً مثل مكة لا يقتل صيده ولا يهاج عائذه " (١).

ولمّا مات عامر بن الطفيل نصبت عليه بنو عامر ميلاً في ميل حمى على قبره، لا تدخله ماشية، ولا تتشر فيه راعية ولا ترعى، ولا يسلكه راكب ولا ماش (٢).

ولقد بلغ من عي كليب أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى، وإذا جلس لا يمرّ أحد بين يديه إجلالاً له، ولا يحتمي أحد في مجلسه غيره ولا يغير إلا بإذنه (٣). وكان إذا مرّ بروضة أعجبتة أو غدير ارتضاه كنّع كليباً ثم رمى به هناك، فحيث بلغ عواؤه كان حمى لا يرعى (٤).

وبعد مقتل كليب أصبح حماء المحرم حلالاً للغزاة، وبطلت حرمة، يقول سعد بن مالك البكري (٥):

أبأناه بالنّاب الذي شقّ ضرعها فاصنح موطوء الحمى متكللاً

ولعل قضية الحمى المتكلل تقودنا إلى قضية أخرى تتعلق بتحريم قتل الملوك، فعلى الرغم من تلك الأحداث التي تشير إلى قتل هؤلاء، إلا أنها تحمل في طياتها معتقداً راسخاً ظل لفترة طويلة من الزمن يمارس طقساً عند العرب، ويصعب تعليل أحداث القتل النازلة بملوك الجزيرة في معزل عما كان يُذكر في الطقوس الملكية العنيفة، مثل طقوس المنذر وكيف كان يضحي للعزى بالقرابين البشرية في يوم يؤسه، ويضحي بنديميه الأسديين وبالشاعر عبيد بن الأبرص، الذي جاء بنفسه إلى قدره (٦)، وغيرها من الأحاديث في القرابين البشرية التي كان يضحي الملوك بها، كما فعل المنذر في يوم أواره، إذ قام بنج الأسرى الرجال على قلة جبل أواره، وبإحراق النساء (٧). وإلى ذلك أشار الأعشى بقوله (٨):

سبأيا بني شيبان يسوم أواره على النار إذ تجلى له قتياتها

ويقال إن عمرو بن هند أطلق عليه "محرّق" لأنه أحرق ثمانية وتسعين رجلاً من "بني دارم" بالنار وكمّهم مائة برجل من "البسراج"، وبامراة نهشلية (٩).

وقد ورد بين أسماء الجاهليين اسم له علاقة بالصنم "محرّق" هو "عبد محرّق"، يجوز أن يكون للمحرّق علاقة بهذا الصنم، كأن يكون قد اتخذ من باب التيمن بالملك الذي عرف بالمحرّق والتبرك به، أو أنه قدم قرباناً لهذا الإله أحرقه على مذبحه بالنار، وكان يكثر من حرق القرابين للألهة (١٠).

(١) انظر القصة بالتفصيل: الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م): الأغاني، شرح، عبد علي منها وسمير جابر، ج ١٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٩-٢٠.

(٢) انظر: عامر بن الطفيل، ديوانه، المقدمة، ص ١٠١. والمبرك، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢١٠هـ/٨٢٥م): التعازي والمراسي، ط ٢، دار صادر، بيروت ١٩٩٢م، ص ٨٧. وانظر: الحموي، حمى النقيع، ج ٥، ص ٤٢٨ وحمى ضريبة، ج ٣، ص ٥١٩.

(٣) شيخو، لويس، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ط ٣، دار المشرق، بيروت، ص ١٥٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

(٦) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٤٩. وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٣٦.

(٧) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٢٧.

(٨) الأعشى، ديوانه، ص ٨٧.

(٩) ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٤٨. وانظر: الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٢، ص ٩٤-٩١. وخبر يوم أواره الأول: جاد المولى وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٩٩.

(١٠) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ١٨٩.

على أن نقض هذا (التابو) أو مبدأ التحريم عند بعضهم يدل دلالة واضحة في الوقت نفسه على صفات التقديس والألوهية التي تصبغ على الملوك والأسباد، ويقال إن امرأ القيس كان في جملة الأسرى في يوم جفر الملوك السنين ضرب المنذر أعناقهم فيه، لكنه أفلت من الأسر، فقال شعراً يرثي من قُتل^(١):

ألا يا عَيْنَ بَكَّى لي شنيناً وبَكَ لي الملوك الذاهبين
ملوكاً من بني حجر بن عمرو يساقون المشية يقتلوننا
فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بني مرينا
فلم تسئل جماجمهم بغسل ولكن بالدماء مرملينا
وأطلق على هذه الحادثة حادثة جفر الملوك^(٢).
ويقول أيضاً في مقتل أبيه الملك^(٣):

سائل بني أسد بمقتل ربهم حجر بن أم قطام حل قتيلاً
هناك خبر أن المنذر قتل ابن الحارث بن جبلة، وقد مه ضحية إلى العزى^(٤).

ونلاحظ التخوف عند كليب وائل من قتل الملوك، والنتيجة التي ستؤول إليها بعد نقضهم التابو المقدس، يقول^(٥):

إن يكن قتلنا الملوك خطاءً أو صواباً فقد قتلنا لبيداً

ونجد أوس بن حجر يذكر مقتل المنذر بن ماء السماء، ونقض بني سحيم التابو الملكي بحرمة قتل الملوك، وإراقة دمائهم، ويتوقع أن هذا النقض سي جلب المصائب على بني سحيم، يقول مخاطباً قاتل المنذر بن ماء السماء^(٦):

نبئت أن دماً حراماً نلتس فهريق في ثوب عليك محبر
نبئت أن بني سحيم أدخلوا ألياتهم تامور نفس المنذر
فلبنس ما كسب ابن عمرو فطمة شمر وكان يسمع ويمنظر

ويقول عدي بن زيد في قتل كسرى^(٧):

قتلوا كسرى بليل محرماً فتولى لم يمتنع بكفـن

فكسرى — كما يقول الشاعر — لم يأت بشيء يوجب تحليل دمه.

وكان كسرى قد ألبس هودة تاجاً من تيجانه وحلاً من حله، فكان لا يراه أحد من العجم إلا سجد له لذلك التاج؛ لصورة كسرى التي كانت فيه، يقول الأعشى^(٨):

(١) امرؤ القيس، ديوانه، ج ٢، ص ٦٤٦. وانظر الخبر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٢٤.

(٢) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٢٤.

(٣) امرؤ القيس، ديوانه، ج ٢، ص ٧٣٤.

(٤) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٢٤.

(٥) شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص ١٥٧.

(٦) أوس بن حجر، ديوانه، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ص ٤٧.

(٧) عدي بن زيد، ديوانه، تحقيق: محمد جبار المعيد، دار الجمهورية، بغداد ١٩٦٥، ص ١٧٨.

(٨) الأعشى، ديوانه، ص ١٤٣.

مَنْ يَرَى هَوْدَةَ يَسْجُدُ غَيْرَ مُتَّحِبٍ إِذَا تَعَمَّ فَوْقَ النَّاجِ أَوْ وَضَعَا
أما جابر بن خنّي فلا يبالي هو وقومه بنقض هذا المبدأ التحريمي، بل يفخر بنقضه وقتل الملوك، يقول^(١):
نُعَاطِي الْمُلُوكَ السَّلَامَ مَا قَصَدُوا بِنَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمَحْسَرٍ
يردّ أبو حنّس على الملك آكل المرار ويهدده، بعد أن قتل أبو حنّس أخاه يوم الكلاب وخاف على نفسه من الملك، يقول^(٢):

قُلْ لَذَا الْأَكْلَ الْمُرَارَ خُذِ الْمُلْ سَلْ وَلَا تَبْكِيَنَّ قَتِيلَ الْكَلَابِ
فَقَتَلْنَا لَكَ ابْنَ أُمِّكَ وَالْمُلْ لَكَ عَقِيمٌ مَقْطَعُ الْأَسَابِ
فَاعْتَدِلْ يَا ابْنَ ذِي الْمُرَارِ عَلَى الْقَصْدِ سُدْ وَلَا يَغْرُرَنَّكَ تَيْهَ الشَّبَابِ

وكذلك يقول^(٣):

قَتَلْتُ شَرْحِبِيلَ بْنَ عَمْرِو بْنِ حَارِثٍ مُمَاماً عَلَيْهِ النَّاجُ وَابْنَ مُضَامِ
فَلَا تَرْجُونَ يَا ابْنَ الْمُرَارِ نَصِيحَتِي وَلَا وَدَّ قَوْمٌ مَغْضِيَيْنَ رِغَامِ

ونقول على الرغم من هذا القتل المحرم للملوك، والذي نقض عند بعض الأقوام، إلا أن النظرة القدسية لهؤلاء الملوك والأسياذ ظلت فترة من الزمن حتى مجيء الإسلام، بل حتى في الإسلام ظلت لفظة "الرب" مرادفة للملوك، وهذا حسان بن ثابت يخلع على جبلة بن الأيهم الغساني صفة الربوبية، ويذكر ملكه بالشام، وكان قد لحق بالروم، يقول^(٤):

لَمْ يَنْسَى بِالشَّامِ إِذْ هُوَ رَبُّهَا لَا لَا وَلَا مُتَصَرّاً بِالرُّومِ

ولم يكن الملك أو السيد مقتصرًا على السلطة السياسية فحسب، بل كان ملكه يشمل السلطين السياسية والدينية، ولعل من الثانية جاء أغلب التقديس، يقول الممزق العبدي مستعطفًا عمرو بن هند، مادحًا إيّاه^(٥):
وَأَنْتَ عَمُودُ الدِّينِ مَهْمَا ثَقُلَ يَقْلُ وَمَهْمَا تَضَعُ مِنْ بَاطِلٍ لَا يُلْحَقُ
ويقول النابغة في المنذر^(٦):

بُعِثْتَ عَلَى الْبَرِيَّةِ خَيْرَ رَاجٍ فَأَنْتَ إِمَامُهُمُ وَالنَّاسُ دِيْسُنُ

وكانت السلطة الدينية مصدر الخضوع والسجود لهذا الملك، ومما يروى أن النجاشي كان يسجد له عند الدخول عليه^(٧). وقد ذكر الأعشى خشوع القوم لمسروق بن وائل، قائلاً^(٨):

النَّاسُ حَوْلَ قَبَابِهِ أَهْلُ الْحَوَائِجِ وَالْمَسَائِلِ
يَتَبَاذَرُونَ فَنَسَاءَهُ قَبْلَ الشُّرُوقِ وَبِالْأَصَائِلِ

(١) أبو زيد، علي، شعراء تغلب في الجاهلية، ج ٢، ط ١، السلسلة التراثية، الكويت ٢٠٠٠م، ص ٢١٦.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٩-٢٥٠. وانظر الخبر: المولى، محمد أحمد جاد وآخرون، ص ٤٦-٤٨.

(٣) أبو زيد، علي، شعراء تغلب في الجاهلية، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٤) حسان بن ثابت، ديوانه، تحقيق: سيد حنفي حسنين، ص ٣٦٣، دار المعارف، مصر.

(٥) الأصمعي، الأصمعيات، ص ١٦٦.

(٦) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢٦٧.

(٧) ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، ج ٣، المكتبة العلمية، بيروت، ص ٢٧٧.

(٨) الأعشى، ديوانه، ص ٣٣٩.

فَسَإِذَا رَأَوْهُ خَاشِعاً خَشَعُوا لَذي تَاجٍ خَلَّالِ

ولا عجب إذن أن نرى شاعراً حراً كالنابغة الذبياني يخلع على نفسه ثوب العبودية، ويجعل من نفسه عبداً للنعمان، يقول^(١):

فَإِنْ أَكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتُسْهُ وَإِنْ تَكُ ذَا عَتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتَبُ

وهي صيغة نلاحظ فيها التثني للرب الملك، على أن النابغة تتكرر عنده هذه اللفظة، وهذا التثني لمسيده الملك، يقول في قصيدة أخرى بعد أن توعد النعمان^(٢):

أَتُوْعِدُ عَبْدًا لَمْ يَخُتَلْ أَمَالِسْهُ وَيُتْرَكُ عَبْدٌ ظَالِمٌ وَهُوَ ظَالِمٌ

وفي قصيدة أخرى يمدح النعمان بن المنذر، قائلاً^(٣):

فَإِنْ كُنْتُ أَمْرًا قَدْ سَوَتْ ظَنًّا بِعَبْدِكَ وَالْخُطُوبُ إِلَى نَبَالِ

ولا عجب أيضاً أن ترتبط الرعية بهذا الملك، فحياته يعني حياتها، ومماته يعني مماتها، لأن الملك واهب الحياة ومرسل الموت، ولا قيمة للرعية بدون الملك، يقول النابغة^(٤):

نَكُونُ رَعِيَّةً مَا دُمْتُ حَيًّا وَلَنَهْبًا بَعْدَ مَوْتِكَ مَا لَكُنْ

بل حتى الأرض مرتبطة بوجود هذا الملك، تنقل ببقائه، وتخف بموته، يقول النابغة مادحاً النعمان بن المنذر^(٥):

تَخَفُ الْأَرْضُ إِنْ تَفَدَكَ يَوْمًا وَتَبْقَى مَا بَقِيََتْ بِهَا تَقِيلاً

ويروى أن كعب بن زهير أكمل البيت، معللاً تلك القدسية التي أضفاها النابغة على النعمان قائلاً^(٦):

لَأَنَّكَ مَوْضِعُ الْقِسْطِاسِ مِنْهَا لَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا أَنْ تَمِيَّسَا

ولا يمكننا أن نفهم قضية التبرك بالروءاء في الحروب إلا في ظل هذا الإطار القدسي الذي كان يعتقده العرب في رؤسائهم من بركات ينزلونها عليهم ساعة مواجهة الموت، فمما يروى أن قبيلة بكر جاءت بشيخها في يوم (الزورين) تيمناً بانتصارها، رداً على قبيلة تميم التي جاءت بزورئها اللذين يمثلان إلهي القبيلة، وهي مواجهة بين الآلهة في حرب يكون الانتصار للإله الأكثر قدسية وتعظيماً في اعتقاد القبيلتين، حتى انتصرت قبيلة بكر، فقال شاعرهم مفتخراً بقدسية الرئيس، مضيفاً عليه الهالة الدينية القديمة من عهد إرم، يقول الأغلب بن جشم العجلي^(٧):

جَاءُوا بِزُورِهِمْ وَجِئْنَا بِالْأَصْنَمِ شَيْخٌ لَنَا قَدْ كَانَ مِنْ عَهْدِ إِرَمَ

فَكَرُّ بِالسِّيفِ إِذَا الرَّمْحُ الْحَطَمُ كَهَمَّةُ اللَّيْثِ إِذَا مَا اللَّيْثُ هَمٌّ

وكان شعار جيش النعمان بن الحارث (سُوع، ودعمي، وأيوب) وهي أسماء صالحين عند النصارى، يتبرك بهم عند الحرب، يقول النابغة^(٨):

(١) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٣) النعمان بن المنذر، ديوانه، ص ٢٠٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٢١٣.

(٦) انظر: النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢١٣.

(٧) انظر القصيدة: ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م): العقد الفريد، ج ٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٨م، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٨) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٥٤.

مستشمرين قد ألفوا في ديارهم دُعاء سَوع ودُعْمِي وأيوب
كما كان شعار بعضهم "حنّ وأصيد" يقول عوف القوافي يذكر قوماً انهزموا أمام قضاة^(١):
وقد أسلموا استاهم للقبيلة قضاة يذعون حنا وأصيذا

أسطورة الحياة (صانع المطر):

ظل الماء طوال فترات التاريخ الإنساني حتى يومنا هذا مصدر الحياة، ولعل أكثر حروب العرب قبل الإسلام كانت من أجل الماء، إذ يمثل الماء عنصراً مقدساً عند عرب الجاهلية ونظروا إليه بإجلال وإكبار، كما نظروا إلى صانعه النظرة نفسها وإذا كان نصب الأصنام - وهي تمثل الأسباط والصالحين - لأجل الأمطار والاستسقاء، فمن البدهي أن يكون الملك أو سيد القبيلة محاطاً بهذه الهالة القدسية لما يمثله من مصدر للحياة، سواء أكان السيد إلهاً عند بعضهم، أم وسيطاً بينهم وبين الإله، وتبدو فكرة الوسيط عند الأعشى، حين يمدح إياس بن قبيصة الطائي، قائلاً^(٢):

ولو أن عزّ الناس في رأسِ صخرة مَلَمَلَمَةً تُنْجِي الأَرَحَ المُخْثَمَا
لأعطاك ربُّ الناسِ مِفْتَاحَ بابِها ولو لم يكن بابٌ لأعطاك سلماً

وكثيراً ما نلاحظ تلك الصور الاستسقائية بالرجال، ملوكاً كانوا أم سادة، ماثلة عند العرب قبل الإسلام في أشعارهم، كما كانت ماثلة عند الشعوب القديمة، لأن المطر هاجس جماعي عند الشعوب جميعها، فكما قدّست الشعوب القديمة بمختلف أجناسها وثقافتها صانع المطر، قدّسته كذلك الشعوب العربية في الجزيرة، ونجد عند النابغة الذبياني هذه الصورة القدسية، حين يمدح الحارث الغساني، قائلاً^(٣):

جَرَّبْتُ أبيضُ يُسْتَسْقَى الغمامُ به من آل جَفَنَةَ في عزٍّ وفي كَرَمٍ

والأعشى كثيراً ما يضيف على ممدوحه هذه الهالة القدسية، كقوله^(٤):

أغرُّ أبلجُ يُسْتَسْقَى الغمامُ به لو صارغ الناس عن أحلامهم صرعا

ويرتبط النور والبياض بالممدوح حين يوصف بهذه الهالة الغمامية المنزلة للمطر، كما رأينا، وكتبتا الصفتين تشيران إلى الخير، والصورة تتكرر عند زهير بن أبي سلمى، في قوله^(٥):

وأبيضُ فياض، يداه غمامة على معنفيه، ما تُغْبِ نوافلُهُ

فلا يجد الشاعر عنصراً خيراً أعظم من المطر، يخلعه على ممدوحه، فكثر تشبيهات الشعراء لممدوحهم بهذا العنصر المقدس، كما يلاحظ عند الأعشى على شاكلة قوله^(٦):

كالغيث ما استمطروه جاذٍ وابله وعند ذمته المستأبد الضاري

(١) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٥٤.

(٢) الأعشى، ديوانه، ص ٢٩٧. الأرح: الوعل المنبسط الظلف. المختم: المحجل الذي يستير التحجيل بأرساغ رجليه دون يديه.

(٣) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢٤٦.

(٤) الأعشى، ديوانه، ص ١٠٧.

(٥) زهير بن أبي سلمى، شرح شعره، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط ١، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ص ١١١.

(٦) الأعشى، ديوانه، ص ١٧٩.

وعند الخنساء في رثاء أخيها صخر، في قولها^(١):

وَكُنْتُ لَنَا غِيثًا وَظِلًّا رِيَابِيَّةً إِذَا نَحْنُ شَتْنَا بِالنُّوَالِ اسْتَهْلَتْ

وتكرر الخنساء صفة اللياض التي تليها السحابة الماطرة، في قولها راثية أخاها صخر^(٢):

نِطَاقُهُ أَيْبُضٌ ذُو رَوْثَقٍ كَالرَّجْعِ فِي الْمَذْجَةِ السَّارِيَةِ

وصورة الغيث تتكرر عند بشر بن أبي خازم الأسدي، في رثاء أخيه سُمَيْر، يقول^(٣):

كُنْتُ غِيثًا لَهْنٍ فِي السَّكَةِ الشَّهْرِ سِبَاءُ ذَاتِ الْغُبَارِ وَالْإِمْخَالِ

ولعل " الغيث " مرتبط بحاجة الإنسان ساعة الجذب والقطط، إِذَا يُسْتَعَاثُ بِالْمَدْمُوحِ لِيُغِيثَ الْقَوْمَ، حين تشجّ

السماء وتقطط الأرض، ويجوع الإنسان، ويقول بشر بن أبي خازم مادحاً أوس بن حارثة^(٤):

غِيَاثُ الْمُزْمِلِينَ إِذَا أَنَاخُوا بِهِ فِي اللَّيْلِ الْغَالِي قِرَاهَا

لأن الممدوح هو الوسيط بين الرعية والسماء لإنزال المطر وهو البديل، يقول النابغة مادحاً النعمان^(٥):

لَكُنِّي إِلَى النِّعْمَانِ حَيْثُ لَقِيْتَهُ فَأَهْدِي لَهُ اللَّهُ الْغِيَاثَ الْبَوَاكِرَا

أما عند الخنساء فإن أخاها غيث الأيتام، حين يشتد الشتاء وتقطط الأرض، ويبس الزرع، تقول^(٦):

أَبَا الْيَتَامَى إِذَا مَا شَتَوَتْ جَحْرَتْ وَفِي الْمَزَاحِفِ ثُبْتُ غَيْرُ وَقَافٍ

وقول زهير بن أبي سلمى، مردداً فكرة غيث اليتامى^(٧):

أَلَيْسَ بِفَيَاضٍ، يَدَاهُ غَمَامَةٌ شَمَالُ الْيَتَامَى فِي السَّيْنِ مُحَمَّدٌ

وحين تشجّ السماء، لا تياس الرعية من الرحمة إذ إن الممدوح البديل السماوي، يقول الأعشى باهلة راثياً أخاه^(٨):

نَعَيْتُ مَنْ لَا تُعْبِئُ الْحَيَّ جَفَنَتُهُ إِذَا الْكَوَاكِبُ أَخْطَأَ نَوَاهَا أَثَرُ

لم تر أرضاً ولم يسمع بها أحدٌ إِلَّا بِهَا مِنْ نَوَادِي وَقَعِهِ أَثَرُ

بل إن النعمان هو السماء التي تمطر الخير إن رضي والشر إن غضب، يقول علباء ابن أرقم بن عوف مادحاً النعمان^(٩):

وَإِنْ يَذُ النِّعْمَانُ لَيْسَتْ بِكَزَّةٍ وَلَكِنْ سَمَاءٌ تُمْطِرُ الْوَيْلَ وَالْكَيْمَ

والصورة نفسها عند النابغة يمدح النعمان بن المنذر، قائلاً^(١٠):

وَأَنْتَ الْغِيَاثُ يَنْفَعُ مَا يَلِيهِ وَأَنْتَ السَّمُّ خَالِطَةُ الْيَرُونِ

ويكرر الأعشى الفكرة نفسها حين يذكر الممدوح ونعمته، ويشبّهه بالغيث الذي يروي البلاد، يقول^(١١):

(١) تماضر بنت عمرو بن الحارث السلمية، ديوانها، تحقيق: أنور أبو سويلم، ط١، دار عمار، الأردن ١٩٨٨م، ص ١١٧.

(٢) المصدر السابق، الرجوع: الخبير في بياضه وصفائه. المدجنة: السحابة الماطرة. السارية: التي أمطرت ليلاً، ص ٤٠٥.

(٣) بشر بن أبي خازم الأسدي، ديوانه، تحقيق: عزة حسن، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٢، ص ١٧٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٥) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ١١٨.

(٦) الخنساء، ديوانها. جحرت: تأخر مطرها، ص ٤١٧.

(٧) زهير بن أبي سلمى، ديوانه، ص ١٦٩.

(٨) الأعشى، الأصمعي، ص ٨٩.

(٩) المصدر السابق، ص ١٥٩.

(١٠) النابغة الذبياني، ديوانه. واليرون: نوع من السموم، ص ٢٦٧.

(١١) الأعشى، ديوانه، ص ٣١.

وترى لله ضرّاً على أعدائه وترى لنعمته على من نالها
أثراً من الخير المزيّن أهله كالغيث صاب ببلدة فأسالها
بل إن الخنساء ترفع أهاها صخراً إلى قدسية أعلى، حين تجعله أكرم من الغيث الذي ينعم بالخير والحياة على
الأرض، تقول رائية أهاها^(١):

وما الغيثُ في جعد الثرى ديمث الربا تبعق فيه الوايل المتهايل
بأفضل سبباً من يذكك ونعمة تعم بها، بل سبباً كفيك أجزل
بل إن الفلج الذي يسقى الجداول ويروي الأرض، يقصر عن كرم الممدوح وعطائه، يقول الأعشى^(٢):

وما فلج يسقى جداول صعتني له شرع سهل على كل مورد
ويروي النيط الزرق من حجراته دياراً تروى بالآتي المعمد
بأجود منه نائلاً إن بعضهم كفى ماله باسم العطاء الموعد
ذلك أن كفي الممدوح مصدر الخير والحياة، والممدوح واهب المطر وصانعه، ولا بد أن يعرف الشاعر الناس
هذا الخير ويحضنهم على استمطاره، يقول زهير بن أبي سلمى^(٣):

فاستمطروا الخير، من كفي، إنهما يسببه يتسروى، منهما، البعد
ما زال في سببه سجد، يعمهم مادام في الأرض، من أوتادها، وتك

ولعل التشبيهات المتكررة في الشعر الجاهلي بالمطر هي تعبير عن الرغبة في المطر، وتعبير عن التوتر والقلق
الذي يعانيه الإنسان الجاهلي من الحباس المطر، وهذا التوتر ليس وليد الإرادة الواعية، إنما هو وليد الحسد
الجماعي والشعور العام، والرغبة في ماء الحياة^(٤).

وقد حملت أسماء بعضهم فكرة الماء والمطر، من ذلك قالوا لرجل من الأزد "ماء السماء"، غير ماء السماء أم
المنذر، وذلك لأنه كان إذا قحط القطر احتبى، فأقام ماله مقام القطر، فسمي: ماء السماء^(٥).
وهذه الصور الاستباقية المتوحدة الفكرة، منبقة من معتقد جماعي واحد بقدسية صانع المطر، إذ يمثل
المصدر أو الوسيط الإلهي.

ومهما يكن من أمر فقد أضفى الشعراء الجاهليون على ممدوحهم، سواء أكان الممدوح ملكاً أم سيداً، بطلاً أم
رجلاً شريفاً وكريماً، القداسة المهيبة من خلال استبقائهم به، ليغيث العباد ويروي البلاد. كما قالت سلمي بنت
صهلل، في رثاء أبيها، تقول^(٦):

والمستغيث به العباد ومن به يحمي النمار وجوزة الجيسران
ولعل في موت السيد انقطاعاً للمطر واهب الحياة، فانقطاع المطر ناتج عن موت المصدر، يقول الأعشى^(٧):

(١) الخنساء، ديوانها، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٢) الأعشى، ديوانه، ص ١٩٣.

(٣) زهير بن أبي سلمى، ديوانه، ص ٢٠٣.

(٤) أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي، ط ١، دار الجيل، بيروت ١٩٨٧م، ص ٨٩.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص ٤٦٧.

(٦) أبو زيد، علي، شعراء تغلب في الجاهلية، ج ٢، ص ٣٩٣.

(٧) الأعشى، ديوانه، ص ٥٣.

إذا الأرض وارتك أعلامها فكف الرواعد عنها القطارا

ويرتبط بهذه القضية صورة الربيع، والربيع شكل من أشكال الحياة الزاهية، والمتع الجميلة بعد أن يغمر الأرض المطر، فضلاً عن أنه شكل من أشكال النعيم والخير الذي تعيشه القبيلة، فصورة الربيع تستحضر رفاة العيش، واللون الأخضر الجميل للحياة هو أثر من آثار نعمة المطر، وكثيراً ما ربط الشعراء الجاهليون صورة الربيع بالرجل الممدوح، بل إنهم جعلوه الربيع نفسه لأن الرجل الممدوح يمثل في كرمه الربيع في عطائه، وإضافته الشكل الجميل للطبيعة الإنسانية، وقد ظهر هذا التصوير عند النابغة الذبياني لارتباط شعره بالملوك والأسدياد في أغلب أحواله، ومن ذلك عندما يمدح النعمان بن المنذر، ويشبّهه بالربيع والشهر الحرام، إذ إن الصورتين، الأولى، وهي تتضمن العطاء والسعادة والعيش الرغيد، والثانية وهي تتضمن الأمن والسلامة؛ ذلك أن الشهر الحرام شهر مقدس عند العرب، لا تراق فيه الدماء، تحيلان إلى النموذج المثالي للحياة الكريمة. ويفقد الملك النعمان، تفقد الحياة الكريمة؛ لأنه مصدرهما، يقول^(١):

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام
وفي النعمان بن الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر، يقول النابغة، وكان النعمان قد خرج مريضاً^(٢):

إن يرجع النعمان نرح ونبتهج وبأت معداً ملكها وربيحها

وفي قصيدة أخرى يصف سيده بالربيع والسيف في آن واحد، وهما لفظتان متضادتان في الدلالة، فالأولى ترمز إلى الحياة والثانية ترمز إلى الموت، وكلا الأمرين، الحياة والموت، مرتبطان بالسيد، يقول النابغة^(٣):

وأنت ربيع ينشعش الناس سيبه وسيف أعيرتة المنية قاطع

أسطورة الشفاء :

وإذا كان العرب قد اعتقدوا في أسيادهم مصدرًا للماء، فإنهم اعتقدوا كذلك في لمائمهم وأجسادهم مصدرًا للشفاء؛ ذلك أن الأسياذ يتمتعون بدماء وأجساد شريفة طاهرة في اعتقادهم، غير التي يتمتع بها الرعية، وهو ما لا شك فيه يحمل نظرة قدسية ترفع هؤلاء إلى مصاف الآلهة أو ما يشبه الآلهة، ومن هذه المعتقدات، اعتقادهم أن دم السيد والملك والشريف يشفي المرء من داء الكلب، فالداء كان مقدساً عند العرب إذ يقدم قرباناً لأصنامهم للتسي تمثّل آلهتهم السماوية، فترضى عنه، فجدد الذبيحة ودمها قربان إلهي قدمته العرب لأصنامها؛ طقساً دينياً وأقسمت به، ولعل جسد السيد أو الشريف ودمه يشكلان هذا القربان للشفاء من الأمراض، وهو يشكل بهذه الكيفية طقس العبور. كما نجد عند عوف بن الأحوص خالماً على القوم صفة قدسية حين يصف دماءهم الشافية من داء الكلب، يقول^(٤):

أو العنقاء ثعلبة بن عمرو دماء القوم للكلبي شفاء

(١) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٣.

(٣) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ١٦٩.

(٤) ابن دريد، أبو بكر الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ / ٩٣٣م): جهرة اللغة، تحقيق: رمزي ملير بعلبكي، ج ١، ص ٣٧٧، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧م. وانظر: الألويسي، محمود شكري، ج ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣١٩.

(٥) الضبي (المفضل بن محمد بن علي ١٧٨هـ / ٧٩٤م): المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط ١، دار المعارف، القاهرة، ص ١٧٥.

وقال عياش الكندي لبني أسد في قتلهم حجر بن عمرو^(١):

عبيد العصا جتتم بقتل رئيسكم
تريقون تامورا شفاء من الكلب
ويصف المتقّب العبدى عمرو بن هند، بطهارة الدم الشافي من داء الكلب، يقول^(٢):
بحريّ الدم، مرّ طعمه
يُبرئ الكلب إذا عضّ وهرّ
ويصف أحدهم قوماً، قائلاً^(٣):

بناة مكارم وأساءة جرح
دماؤهم من الكلب الشفاء
ويفتخر دريد بن الصمة بنفسه ويقومه، فيقرر أن دماؤهم حين يثأر منهم شفاء للمغيرين، يقول^(٤):
يُغار علينا واترين فيشتفى
بنا إن أصبنا أو نُغير على وتر
وقال مالك بن حريم الهمداني، يمدح قبيلة بني الخيفان على أنهم شرفاء وأن دماؤهم طاهرة^(٥):
يزيد بني الخيفان، إن دماؤهم
شفاء، وما والى زبيد وجعنا
ويقول زهير بن أبي سلمى، مادحاً هرم بن سنان والحارث بن عوف^(٦):

وإن يقتلوا فيشتفى بدماؤهم
وكانوا قديماً من منابهاهم القتل
أما الخنساء فإنها تجعل أخاها صخرأ شفاء من المرض، إذ تقول^(٧):
نلك الذي كنّا به
ويقول العباس بن مرداس مفتخراً بقومه^(٨):

وإني من القوم الذين دماؤهم
شفاء لطلّاب التّرات من الوغم
ومن مظاهر تقديس العرب لأسياذهم وأشرفهم، أن المرأة المقاتلة إذا وطئت قتيلاً شريفاً بقي أولادها^(٩).
وفي التاج: امرأة مقاتلة: لا يعيش لها ولد. وقيل: المقاتلة هي التي لم يبق لها ولد، وهو مأخوذ من القلت وهو
الهلاك^(١٠) يقول طرفة بن العبد، يذكر النسوة المقاتلات^(١١):

لا نلّمني إنّها من نسوة
رقد الصّيف مقاتلات نزر
ويصف المتقّب العبدى ناقة مقاتلة: أي لا تلقح إلا بطيئاً يقول^(١٢):

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م): الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ج ٢، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٩م، ص ٧.

(٢) المتقّب العبدى، ديوانه، ص ٧٠.

(٣) الألويسي، ج ٢، ص ٣١٨.

(٤) دريد بن الصمة، ديوانه، تحقيق: محمد خير البقاعي، ص، دار قتيبة.

(٥) الأصمعي، الأصمعيات، ص ٦٥.

(٦) زهير بن أبي سلمى، ديوانه، ص ٨٧.

(٧) الخنساء، ديوانها، ص ٣٣١.

(٨) العباس بن مرداس، ديوانه، تحقيق: يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت. والوغم: الحقد الثابت، ص ١٥٣.

(٩) النويري، شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢، ص ١٢٤، دار الكتب والألويسي، ج ٢، ص ٣١٧.

(١٠) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م): تاج العروس، مادة: قلت، تحقيق: مصطفى حجازي، الكويت ١٩٦٩م.

(١١) طرفة بن العبد، ديوانه، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥، ص ٥٨.

(١٢) المتقّب العبدى، ديوانه، ص ١٨٠.

تشد بدائم الخطـسـرآن جـثـلـ خـوآية فرجـ مـقـلـتـ ذـهـيـنـ
ولعل العرب كانوا يعتقدون بالسحر الاتصالي إذ إن ملاصقة جسد الشريف أو السيد كفيل بسريان الدم الشريف
المقدس إلى الجسد الآخر، مما يكفل له الحياة والبقاء ما دام أن العرب تعتقد في دماء هذا السيد عنصراً يتميز عن
بقية الناس بقداسته، وليس هذا الدم يشفي من داء الكلب فحصب، بل يمكنه كذلك أن يشفي من الموت ويهب الحياة،
يقول بشر بن أبي خازم في رجل من بني والبة يقال له ضباء بن الحارث، خالماً عليه وعلى جسده هذه الصفة
القدسية^(١):

تظـلـ مـقـالـيـتـ النـسـاء يـطـأـنـسـه يـقـلـنـ: أـلـا يـلـقـى عـلـى المـرء مـنـزـرُ
"إن المرأة تنوطاً الرجل السيد عند قتله مباشرة؛ لذلك قال: "ألا يلقي على المرء منزر" لأنه عريان، والنساء
يطأنه ويستحجن من عريه، وعند الوطء تنتقل الروح مباشرة من الجسد الثاني إلى الجنين في أحشاء المرأة، فيعيش
عمر الرجل السيد"^(٢).
وقال آخر^(٣):

تـركـنـ الشـعـثـمـيـن برمـل خـبـت تـزورهما مـقـالـيـتـ النـسـاء
وكذلك عند أحدهم، حين يُرْفَعُ للنساء قتل عمرو بن مرة، فخير مقتله يشكل حياة للنساء التي تنقذ أولادها، يقول^(٤):
تـبـاشـرتـ المـقـالـتـ حـيـن قـالـوا ثـوى عـمـرُ بـن مـرّة بـالـحـفـيـر
وقول أحدهم يصف النساء وهن يطأن القاتل الشريف؛ رغبة في الحياة^(٥):
بـنـفـسـي الذـي تـمـشـي المـقـالـيـت حـولـه يـطـأـن لـه كـشـحاً هـضـيماً مـهـشـماً
ولا عجب في اعتقادهم هذا إذ إنهم كانوا يرون في أجسام هؤلاء السادة والأشراف ودمائهم طهارة لا تتوافر في
غيرهم، وقد كان الزبرقان يُرفع له بيت من عمام وثياب، ويُضح بالزعران والطيب، وكانت بنو تميم تحج ذلك
البيت، ويصف المخبل السعدي ذلك قائلاً^(٦):

وأشـهد مـن عـوتـب حـلـولاً كـثـيـرة يـحـجـون سـب الزـبـرـقـان المـزـعـفـرا
ويصف النابغة الذبياني أجسام قوم غسان المطهرة، يقول^(٧):
هـم المـلـوك وأبـناء المـلـوك لـهم فـضـل عـلـى النـاس فـي اللـؤـاء والنـعم
أحلام عـاد وأجـسام مـطـهـرة مـن المـعـقـة والأفـات والإثم
ويذكر سماك اليهودي، راثياً كعب بن الأشرف سيد الأبحار، جسد كعب ودماء الطاهرة، ذات الرائحة العطرة،
يقول^(٨):

- (١) بشر بن أبي خازم، ديوانه، ص ٤٢.
- (٢) أبو سويلم، أنور، دراسات في الشعر الجاهلي، ط١، دار الجيل، بيروت، دار عمار، عمان ١٩٨٧م، ص ٤٩.
- (٣) الألويسي، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٦) السبيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن أحمد (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م): الروض الألف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج ٧، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٠م، ص ٤٥٠. والمخبل السعدي اسمه: كعب بن ربيعة بن قتال.
- (٧) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢٣١-٢٣٢.
- (٨) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٢٠٠.

فَغَادَرُوهُ كَانَ دَمًا نَجِيمًا
يسيلُ على مدارعه عيبرُ
وقال حسان بن ثابت يمدح قومه ويصف رائحة رشح جلودهم، برائحة المسك والزعفران، يقول^(١):
ملوك وأبناء الملوك إذا انتشوا
أهانوا الصبوح والسيف المسرّها
إذا جلسوا الفيت رشح جلودهم
من المسك والجادي جفا تَبَدَّدَا
وقال حسان بن ثابت أيضا يجمع بين طهارة الدم ورائحة العرق في قومه، ويرفعهم إلى منزلة الملوك، حين يقول^(٢):

بكل فتى عاري الأشاجع لاحسة
قراغ الكُماة يرشح المسك والذما
إذا استدّ بركتنا الشمس درت متوننا
كان عروق الجوف ينضجن عنكما
ولسنا بني العنقاء وابني محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا
على أن الربيع بن زياد العبسي يرفع مالك بن زهير العبسي منزلة أعلى حين يقرر أن النساء لا تظهر بعد مقتله، وكان مقتله شكلا عمقا لنساء القبيلة، مما يعني موتا للقبيلة كلها، يقول^(٣):

أفبعد مقتل مالك بن زهير
ترجو النساء عواقب الإطهار

السيد والإله القمر:

لم يكن العرب بمنأى عن الكواكب السماوية، فلقد لفتت أنظارهم بأنوارها، واعتقدوا في أنوائها الخير والشر، ولعل القمر والشمس من أبرز هذه الكواكب وأعظمها تأثيرا في نفوسهم، ويذكر الشهرستاني أن الهنود يزعمون أن القمر ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، ومن سننهم أن اتخذوا له صنما، يقدمون له الطعام والشراب ثم يرغبون إليه، وينظرون إلى القمر ويسألونه حوائجهم^(٤).

"ولقد كان القمر هو الإله الذكر الأب عند العرب الجنوبيين، وفي أغلب المجتمعات البدائية عُبد القمر كإسمي آلهة ثلاثية أطلقوا عليها اسم "نجم" وعند الساميين "هلال"^(٥). ومن ثم أصبح معبود العرب الشماليين بحكم وجود المستعمرات الجنوبية في الشمال، ويرى بعضهم أن لفظة "قمر" كانت الاسم المتأخر الذي أخفى به الساميون إسم رب الأرباب" بعد تحول الآلهة القمرية الأنثى إلى إله ذكر أب بظهور الملك الإلهي الذي وقر على اعتبار أنه الهيئة الذكرية للقمر، فخطب من أتباعه ومن عبثته "ود أب" أو "أب ود"^(٦).

وقد ظهر في الجزيرة العربية بمنطقة "أبها" رسمة شخص بطول ٥سم يحمل سهما وقوسا يُشار إليه على أنه "ود"^(٧).

ويذكر "الكلبي" صفة الصنم "ود" "رمز الإله القمر": كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد ذبر

(١) جسان بن ثابت، ديوانه، ص ١٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٣) المرزوقي، أبو علي إجد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م): شرح ديوان الحماسة، تحقيق: عبد السلام هارون، وأحمد أمين، ج ٢، ط ١، دار الجيل، بيروت، ص ٩٩٢.

(٤) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م): الملل والنحل، تحقيق: محمد بن فريد، ج ٢، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٥) شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص ٧٨.

(٦) المصدر السابق، ص ٨١.

(٧) الكباوي وآخرون، تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة (أبها - جازان)، ع ١٨، ص ١٠٣.

عليه خلتان، مُتَرَبِّحَةٌ، مُرْتَدٌّ بِأُخْرَى، عليه سيفٌ قد تَقَلَّدَهُ وقد تَكَبَّ قَوْسًا، وبين يديه حُرْبَةٌ فيها لَوَاءٌ ووَفْضَةٌ فيها نَبَلٌ^(١).

ويذكر جواد علي أن اللحيانيين يُظَنُّ أنهم تعبدوا هذا الإله في مواطنهم الأولى، كما كان إلهًا معروفًا عند اللمويين، ورمز إليه العرب الجنوبيون بصورة رأس ثور^(٢).

كما أن أول من سَمَّى "عبد ود" هو عوف بن غنرة، سَمَّى به ابنه، ثم سَمَّت العرب به بعد^(٣). وعُرف إله حضرموت الرئيس بـ "سن" "سين" وهو القمر. وهو إله شعب حضرموت الخاص^(٤). كما ورد في نقش ينتمي إلى خط المسند الجنوبي اسم "عم" : ابن ملك حضرمي لم يملك أو أنه الإله القبتاني فضلًا عن أن "عم" الإله الأكبر لقتبان وهو الإله القمر عندهم^(٥).

وكنَّى عن الإله القمري "المقة" وهو نفسه الإله "ود" بثور في اليمن، أي الإله "ثور" كما أن من ألقابه "ثور" فضلًا عن أن الثور كان حيوانه المقدس، وكانت الثيران من أكثر الحيوانات التي يُضَحَّى بها للإله القمر "المقة" كما أن قبائل وعشائر بأسرها تسمت باسم "ثور"^(٦).

وعلى كل حال، فإن الملك اكتسب بعد ذلك قوته من عبادته للقمر، كما يرى شوقي عبد الحكيم، وذلك في انتقال القمر من إلهة أنثى إلى إله ذكر بعد أن كان يُضَحَّى بالملك المقتول، ويُنثر دمه قربانًا للآلهة الأم، وقد عُدَّ هذا الملك بعد ذلك الأب نفسه، ممثلًا أو متقمصًا للإله القمر^(٧).

ولعلَّ هذا ما نلاحظه في إضفاء بعض السادة العرب على أنفسهم أسماء القمر، ومن هؤلاء اسم الزيرقان بن بدر، وهو أحد سادات العرب، وقد مرَّ معنا كيف كان يُرفع له بيت من عمائم... والزيرقان من أسماء القمر، قال الشاعر^(٨):

تُضَيُّ به المنابرُ حين يَرَقِي عليها مثل ضوءِ الزيرقان

وقيل: الزيرقان: ليلة خمس عشرة، وليلة أربع عشرة ليلة البدر^(٩).

وقد افتخر الزيرقان بقومه، قائلًا^(١٠):

نحن الكرام فلا حيُّ يُمانلنا منَّا الملوكُ وفيما تَنصَبُ البُيُوتُ

وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة القمر، في قوله تعالى: ﴿... لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١١)

(١) الكلبي، الأصنام، ص ٥٦.

(٢) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٣١٥.

(٣) الكلبي، الأصنام، ص ٥٥.

(٤) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٣٠١.

(٥) الكلباي وآخرون، تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة (أبها - جازان)، ع ١٥، ص ١١٠.

(٦) عبد الحكيم، شوقي، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص ٨٣.

(٧) المصير السابقي، ٧٩-٨٠.

(٨) السهيلي، الروض الأثف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج ٧، ص ٤٥٠.

(٩) الزبيدي، تاج العروس، مادة: زيرق، تحقيق: مصطفى حجازي، الكويت ١٩٨٩م.

(١٠) السهيلي، الروض الأثف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج ٧، ص ٤٥٠.

(١١) سورة فصلت، الآية ٣٧.

وقد نرى في إطلاق الشعراء على ساداتهم "كهل" بقايا ذلك التراث الديني القديم، فقد كان "كهلن"، أو "الكهل" و"الكاهل" إلها من آلهة المعينيين، وهو يرمز مثل "وذ" إلى القمر^(١). فتسمت بالإله القمر قبائل كهلان باليمن، كما عرف بهذا الاسم عند القبائل البائدة للعرب الشماليين في الحجاز ونجد^(٢). وتعني لفظة "كهل" المعنى المفهوم منها في عربيتنا، كما تعني "القدير"^(٣).

ولعل الطور العمري للرجال كان له تقديس خاص في حزم أمور القبيلة، خاصة في مرحلة الكهولة، ونجد لفظة "كهل" في وصف ساداتهم تتكرر في الشعر الجاهلي، من ذلك قول حسان بن ثابت يصف سادة قومه، قائلا^(٤):

وفينا إذا ما شئت الحرب سادة كهول وفتيان طوال الحمائل

وإذا كان الفتى الشجاع يخوض غمار المعركة، فإن سياسة القبيلة ملقاة على عاتق الكهل، المنبر لشؤونها، يقول حسان أيضا^(٥):

فالأول حل على الجماس فما لهم كهل يسود ولا فتى بهلـ

كما يصف حسان مجالس القوم التي يتوسطها سيدهم الكهل، يقول^(٦):

وتلقى على أبياتنا حين نجتدى مجالس فيها كل كهل معتم

أثم طويل الساعدين سمودع معيد قراع الدار عين مكلسم

ويرثي المهلهل أخاه كليباً، واصفاً أخاه بالكهل، يقول^(٧):

إن تحت الأحجار حزماً وعزماً إن قتيلاً من الأراقم كهلا

وعند عمرو بن معد يكرب، يصف السادة الكهول من قومه، قائلا^(٨):

ففتنهن على كهول سادة وعلى شرامحة من الشبان

أما القمر فقد ظهر في تشبيهات الشعراء الجاهليين بكثرة، ومن ذلك حين يشبه الأعشى الأسود بن المنذر اللخمي، بالهلال في قيام الناس له، تبجيلاً وتقديساً، يقول^(٩):

أرتجي صلت يظل له القوم م ركوداً قيامهم للهلال

ويرصد موسى بن جابر في مدح أبي الغنيرة، صورة الهلال في استضاءة الناس بنوره، واعتلاء شأنه، كما هي حال الممدوحين، يقول^(١٠):

هلالان حمالان في كل شتسوة من القل ما لا تستطيع الأباعر

ونجد عند الخنساء الفكرة نفسها التي طرحها الأعشى، من قيام الناس للهلال، رافعة شأن أخيها صخر لمنزلة

(١) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦، ص ٢٩٥.

(٢) عبدالحكيم، شوقي، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص ٨٢.

(٣) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٣١٢.

(٤) حسان بن ثابت، ديوانه، ص ١٦٧.

(٥) المصدر السابق، ص ١٧٨. والبهلول: السيد الشريف.

(٦) المصدر السابق، ص ١٨٤.

(٧) المهلهل، ديوانه، ص ٦٣.

(٨) عمرو بن معد يكرب، شعره، تحقيق: مطاع الطراييشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٤، ص ١٦١.

(٩) الأعشى، الأسود بن المنذر اللخمي، ديوانه، ص ٩.

(١٠) المرزوقي، شرح ديوان الخنساء، ج ١، ص ٣٦٩.

الآلهة المقدسة، نقول^(١):

ملكٌ ماجدٌ يقسومُ له النسا
ولما بلغ مقتل بسطام بن قيس أمه، قالت ترثيه^(٢):
سُ جميعاً قيامهم للهلال
إذا ما غدا فيهم غنواً وكأنهم
ونجومُ سماء بينهن هلالها
وظهرت صورة القمر في الشعر الجاهلي حين يُضئُ الظلمة، كما هي حال الممدوح بين الناس، كما يقول الأعشى
باهلة رائيًا أخاه، خالماً عليه الأنوار القمرية، يقول^(٣):
ورأى حرباً يستنصاء به
كما يُضئُ سواد الطخينة القمر
ويقول النابغة في النعمان بن الحارث الغساني، ويشبهه بالقمر الإله الأب "ود"^(٤):
متوج بالمعالي فوق مفارقة
وفي الوعى ضئغ في صورة القمر
وتتكرر الصورة عند أعشى باهلة، حين يرثي أخاه المنتشر، ويضفي عليه الأنوار القمرية، جاعلاً مكانته كمكانة
القمر في الظلمات، يقول^(٥):

مردى خروب، شهابٌ يستنصاء به
ويشبه الأعشى قيس بن معد يكرب بالبدر، في قوله^(٦):
كما أضاء سواد الظلمة القمر
إنا لدى ملكٍ بشب
سوة ما تغب له النوافل
متحلب الكفير من
للبدر قول وفاعل
"إن تشبيه الممدوح بالقمر أو الهلال، لا يقصد به، مجرد التشبيه، أو التعبير عن رفعة الشأن أو وضاعة الوجه
وما إلى ذلك، بل هو امتداد وتأثر بالنظرة الدينية الأسطورية، التي كانت تربط زعماء القبائل بالأرباب التي تعبدوها.
حتى وإن تنوسي الأصل الأسطوري القديم"^(٧).
ويقول عبدالله بن الزبير يبيكي قتلى بدر^(٨):
والحارث الفياض يبرق وجهه
كالبرق جلى ليلة الإطلام
"إن" فياض "تحمل كل الميراث القديم. القمر فياض" لارتباط أسطورته بالمطر^(٩). وتتضح هذه الفكرة عند أبي زيد
الطائي، رائيًا ابن أخته، في قوله^(١٠):
أصلتي تمنو العيون إليه
مستنير كالبرق عام المهود

(١) الخنساء، ديوانها، ص ٣٥٣.

(٢) شيخو، شعراء اللصالية قبل الإسلام، ص ٢٦١.

(٣) الأسمعي، الأسمعيات، ص ٩٢.

(٤) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ١٥٤.

(٥) القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (ت أوائل القرن الرابع الهجري): جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق: محمد علي الهاشمي، ج ٢، ط ٢، دار القلم، دمشق ١٩٨٦م، ص ٧١٧.

(٦) الأعشى قيس بن معد يكرب، ديوانه، ص ٣٤٧.

(٧) علي البطال، الصورة في الشعر العربي، ص ١٨٤-١٨٥، مطبعة الفجر، بيروت.

(٨) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ١٥.

(٩) علي البطال، الصورة في الشعر العربي، ص ١٨٦.

(١٠) حرمله بن المنذر، ديوانه، تحقيق: نوري القيسي، ص ٥٣، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٧م.

ونجد التشبيه بالبدر عند بشر بن أبي خازم، يرثي أخاه سُمَيْرًا، قائلا^(١):

لَلَّهِ دُرُّ الْقَبْرِ مَا حَثِيَتْ
أُرْوَعُ شَيْهَا لِلْبَنْرِ إِذْ سَطَا

ويستعير الشعراء الجاهليون أحيانا في قصائدهم، عن القمر بالنور؛ للوظيفة نفسها التي يقوم بها القمر، يقول مالك بن حريم الهمداني، بمدح قومه^(٢):

وَمَنْ رَأَيْتُ يُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ
سَتَاءٌ وَحِلْمًا فِيهِ، فَاجْتَمَعَا مَعَا

أما قضية "النور" رمز الإله القمر، فلا يمكننا أن نفكر صورة الثور الوحشي في الشعر الجاهلي، بمنأى عن هذه العلاقة الثنائية، فالإله القمر رمزٌ إليه العرب بـ "نور" وتعبّده العرب، وعدّه العرب الجنوبيون من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الإله "القمر"، وجسد بعضهم هذا الإله برأس إنسان له لحية وقرنان^(٣).

كما ظهر في صورة آشورية تمثله رجلا ملحي يرتدي ثوبا قصيرا، ويلبس قبعة فيها زوجان من القرون، ويمسك بيمنه فأسا ويسراه صاعقة^(٤). كما هي الحال عند العرب في الصنم "ود" كما وصفه الكلبي، وذكره الطبرسي من أن "ود" كان على هيئة إنسان، ولما كان الملك أو السيد رمزا إلهيا أرضيا للإله السماوي، أو صورة له، يقوم بالوظائف نفسها التي يقوم بها الإله "القمر"، فلهذا ينسحب على الثور الوحشي الممثل للإله "القمر". ولو أنعمنا النظر في صورة الثور الوحشي في القصائد الجاهلية لوجدنا قصته "تحمل تقلا وجدانيا وعاطفيا ودينيا عظيما، فيها شوق وعذاب، ورغبة ورهبة منذ أن كان الإنسان القديم يُجَلُّ الثور ويقُدِّسه^(٥).

وانظر إلى هذه الصورة التي يطلقها بشر بن أبي خازم في بيت واحد، مصورا هذا الثور في صراعه مع الكلاب، وكيف أن الكلاب مزقت جلده، تماما كالراهب المقدس الذي جاء من بيت المقدس، فقطع صبيان النصارى ثيابه؛ تبركا به، يقول^(٦):

وَأَرْكَنَهُ يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا
كَمَا خَرَقَ الْوَلْدَانُ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ

وكثيرا ما نلاحظ صورة الثور في الشعر تظهر ليلا، ويتعرض خلالها لريح الشتاء الباردة وركونه إلى شجرة الأرتى، وتعرضه لمطاردة الكلاب حين تتسج الشمس خيوطها^(٧). هذه العناصر يجب أن تقوم في الذهن عندما نتلمس مكونات صورة الرجل المثال، التي تظهر في مواقف المدح أو الرثاء أو الفخر، فالرجل الكامل رمز ممثل للإله الأب القمر - وبديل لرمز الثور الوحشي الذي عبّد رمزا ممثلا للقمر أيضا^(٨).

فالربط بين الممدوح والثور هو ربط بين الإله الأب - القمر - وبين رمزه المقدس. ولننظر مرة أخرى إلى أبيات بشر بن أبي خازم، كيف يصور الثور وعلاقته بالكواكب، واستنزاله المطر، وصراعه مع الكلاب، يقول^(٩):

(١) بشر بن أبي خازم، ديوانه، ص ١٢٤.

(٢) الأصمعي، الأسمعيات، ص ٦٦.

(٣) فريزر، أدونيس، ترجمة، جبرا إبراهيم جبرا، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩م، ص ١٢٠.

(٤) فريزر، أدونيس، ص ١٢٠.

(٥) أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي، ص ١٥١.

(٦) بشر بن أبي خازم، ديوانه، ص ١٠٢.

(٧) انظر: قصيدة زهير بن أبي سلمى، شرح شعره، الحاشية، ص ٤٤-٤٥. وقصيدة ليبد بن ربيعة العامري، ديوانه، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، الكويت ١٩٨٤م، ص ٧٦-٨٠.

(٨) علي البطال، الصورة في الشعر العربي، ص ١٨٣.

(٩) بشر بن أبي خازم، ديوانه، ص ٥٥-٥٧.

طَافَ بِرَمْلَةٍ أَوْزَالٍ تَضَيَّفَتْ
فَبَاتَ فِي حَقْبٍ أَرْطَاةٍ يَلُودُ بِهَا
يَجْرِي الرِّذَاذُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُنْكَرِسٌ
بَاتَتْ لَهُ الْعُقْبُ الْأُولَى بَنَثَرَتِهَا
فَفَاجَأَتْهُ، وَلَمْ يَرْهَبْ فُجَاعَتَهَا
مَعْرُوقَةَ الْهَامِ، فِي أَشْدَاقِهَا سَعَةً
فَلَزَّ عَجَتَهُ، فَأَجَلَى ثُمَّ كَرَّ لَهَا
فَمَارَسَتْهُ قَلِيلًا، ثُمَّ غَادَرَهَا
إِلَى الْكَفَّاسِ عَشِيٍّ بَارِدٍ صَسَرِدُ
كَأَنَّهُ فِي ذَرَاهَا كَوَكَبٌ يَقْدُ
كَمَا اسْتَكَانَ لَشَكْوَى عَيْنِهِ الرَّمْدُ
وَبَثْلُهُ مِنْ طُلُوعِ الْجَبْهَةِ الْأَسَدُ
غُضَفٌ نَوَاحِلُ فِي أَعْنَاقِهَا الْقَنْدُ
وَالْمِرَافِقُ فِيمَا بَيْنَهَا بَنَدُ
حَامِي الْحَقِيقَةِ يَحْمِي لَحْمَهُ نَجْدُ
مُجَرَّبُ الطَّعْنِ فَتَالُ لَهُ جَسَدُ

"إن الحديث عن المطر لا يتضح تماما في القصيدة الجاهلية إلا عندما تُسرد قصة ثور الوحش؛ لأن الثور رمز مشهور من رموز المطر"^(١).

ولعل الثور حكما هي حال الرجل المثال "ود" - صانع المطر، ومُنْزَلُ الغيث، وقد اتُّخِذَ تعويذة سحرية لاستئزال المطر، فقد كان يُحشى جلده بالبذور الزراعية، ويمزق جلده ليتدفق منه الحب فيمطر القوم"^(٢).

كما أن ظهور الثور ليلا في الشعر الجاهلي يتناسب في منلوله مع بعض الطقوس التي تقيمها إحدى القبائل عند حلول المساء، عندما تحرق عدة أحد الثيران، وذلك لأن الدخان الأسود يجمع السحب ويسبب سقوط المطر"^(٣).

ولهذا نجد الشعراء الجاهليين يقرنون الثور دائما بالكواكب المعبودة، يقول عبيد بن الأبرص"^(٤):

كَالْكَوْكَبِ النَّزِيِّ يَشْرِقُ مَتْنُهُ
خَرَصْنَا خَمِيصًا صَلْبُهُ يَتَاوَدُ

وعند أوس بن حجر، في قوله"^(٥):

وَانْقَضَ كَالدَّرِيِّ يَتَّبِعُهُ
نَقْعٌ يَشُورُ تَخَالُهُ طَنَبَا

وعند الأعشى، في قوله"^(٦):

تَجْلُو الْبَوَارِقُ عَنْ طَيَّانٍ مَضْطَرِ
تَخَالُهُ كَوَكَبَا فِي الْأَفْقِ تَقَابَا

ويظهر الثور قاضي نذور عند ليبد والنابهة، هذه الصورة توحى بصورة السيد المقدس، الذي يصلي صلاة الاستسقاء، يقول ليبد"^(٧):

فَبَاتَ كَأَنَّهُ قَاضِي نَذُورِ
يَلُودُ بِسُغْرَقٍ خَصْلٍ وَطَالِ

ويقول النابغة"^(٨):

فَبَاتَ كَأَنَّهُ قَاضِي نَذُورِ
شَرَى لِلَّهِ يَنْتَظِرُ الصَّبَا

"وقد يرى الإنسان القديم في معبوده نقائص الإنسان، وعيوبه، وقد يحب، وقد يكره... لذلك كان الثور يتصف

(١) أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي، ص ١٦٦.

(٢) النوري، قيس، الأساطير وعلم الأجناس، دار الكتب، الموصل، العراق ١٩٨١م، ص ١٩٢.

(٣) فريزر، الحصن الذهبي، ص ٢٧٦.

(٤) عبيد بن الأبرص، ديوانه، تحقيق: حسين نصار، ص ٤٤، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٧م.

(٥) أوس بن حجر، ديوانه، ص ٣.

(٦) الأعشى، ديوانه، ص ٥٥.

(٧) ليبد، ديوانه، ص ٧٦.

(٨) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢١٥.

بصفات مجتمع البشر...»^(١)

أسطورة الموت:

ظل الإنسان طوال حقب التاريخ عاجزاً أمام فكرة الموت، وجسدت كل أمة هذه الفكرة الغامضة في إنسان أو حيوان، أو نبات، أو شيء مجرد، وجعلته المسؤول الأول عن الموت، واعتقد العرب الدهر صائماً للموت، ومسؤولاً عن تلك الكوارث التي يُصاب بها الإنسان أو الحيوان أو غيره، ولما كان الدهر عنصراً مجرداً لا يستطيع الإنسان التخلص منه أو كفه عن ممارسة طبيعته القاتلة، وقف الإنسان الجاهلي عاجزاً أمامه، وهو ينظر إليه ينشأ برأيه فيه، فظهرت البكائيات في الشعر الجاهلي، لكن الإنسان الجاهلي اعتقد بخلود الروح ويقالها بين الأحياء تأكل وتشرى كما يأكل الأحياء ويشربون، ومن هنا جاءت فكرة تقديس الأموات وعبادتهم عند بعضهم - كما أسلفنا - وقد بلغ تقديس الساميين لموتاهم وأسلافهم إلى حد دفنهم معهم في بيوتهم وسكناتهم أو على مقربة منها؛ وذلك حتى يتسنى لهم تعرية وجوههم واستشارتهم في كل ما يعن لهم من تصرفات مصيرية، كالحرب والهجرة والزواج وغيرها^(٢).

كما اعتبر القدماء منذ عصور ما قبل التاريخ أن الموتى يمتلكون قوى ما فوق الطبيعة الخارقة فعبدهم.. فعُدت الجثث وبشكل مباشر، موضوعاً للممارسات الدينية والشعائرية وهو ما تبيّن في التحنيط والدفن داخل الصخور الصلدة الجلمودية في جنوب الجزيرة العربية وشمالها، والأردن وسوريا وفلسطين، فضلاً عن وضع الممتلكات حتى المجوهرات والمأكولات مع الموتى من الأبلاب^(٣).

وقد عظم بعض أهل الجاهلية قبور ساداتهم ورؤسائهم واتخذوها أضرحة يزورونها ويتقربون إليها ويتبركون بها، وقد بلغ من بعضهم أن جعلها حصيً وملاذئاً من دخل إليها أمن، ومن لجأ إليها وكان محتاجاً أغيث.. ومن طلب العون واستغاث بصاحب القبر أغيث، حتى صارت في منزلة المعابد^(٤).

ولعل هذه الصورة القديمة اختص بها على مرّ العصور الآلهة والأرباب وقد كانت الأصنام في الجاهلية يُستمطر بها ويستغاث، ولها حصيٌ لا يجوز نقضه، ومن هنا شيد العرب الجاهليون الأضرحة المرتفعة لموتاهم، وخاصة الأسباط منهم والأشراف، وتظهر هذه الفكرة عند ابن أبي خازم، حين يمدح أوس بن حارثة، يقول مشبهاً سنام البعير بالضريح المرتفع^(٥):

سناماً يرفع الأخراس عنه إلى سند كما أرتد الضريح

والغالب أن يكون القسم في موضع ذي حرمة قديمة.. كأن يكون عند قبر مثل قبر سيد قبيلة^(٦). ولعل المقسم به يدخل في هذه الحرمة القدسية، وهذا ما فعلته قبيلة "حارثة بن لأم" التي اتخذت قبر حارثة إلهاً يُعبد ويُحلف به، وقد عيّرهم بذلك بشرين أبي خازم الأسدي هاجباً أوس بن حارثة، قبل أن يقع الشاعر في أسرهِ يقول^(٧):

(١) أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي، ص ١٦٩.

(٢) عبد الحكيم، شوقي، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص ٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٦٩.

(٤) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٤٤٨.

(٥) أوس بن حارثة، ديوانه، ص ٥٠.

(٦) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٥٠٩-٥١٠.

(٧) بشر بن أبي خازم الأسدي، ديوانه، ص ٩١.

جملتم قَبْرَ حَارِثَةَ بِنْتِ لَأْمٍ
لَهَا تَحْفُونَ بِهِ فَجُورًا
ومن الممارسات الطقسية الدينية في تقديس الموتى، أنهم كانوا ينحرون إبلهم وخيولهم على القبور وقد اختلفت فسي سبب العقر، فقيل: إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره في حياته وينحره للأضياف، واحتجوا بقول الشاعر:

وانضح جوانب قبره بدمائها
فلقد يكون أحادهم ونبائسح
وقيل إنما كانوا يفعلون ذلك إعظاماً للميت كما كانوا ينحجون للأصنام، وقيل لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بلت فكأنهم يثأرون لهم فيها. وقيل إن الإبل أنفس أموالهم فكانوا يريدون بذلك أنها قد هانت عليهم لمعظم المصيبة^(١).

وعلى كل فقد كانت الإبل معبودة عند العرب في الجاهلية، وهذه العبادة تشكل مرحلة متطورة في تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ولعلها بقايا العقيدة الطوطمية القديمة^(٢).

ويرى جواد علي أن هذا النحر لا بد أن يكون من الشعائر الدينية والعقائد الجاهلية التي لها علاقة بالموت وباعتقادهم أن موت الإنسان لا يمثل فناء تاماً وإنما هو انتقال من حال إلى حال^(٣).

وعلى كل حال، فقد تحدثت الروايات والأخبار عن ممارسة العرب لهذا الطقس على قبور الأسباط والأشراف وكثيراً ما تُحرق الإبل وتُعقر على القبور لتبذل بدماء الإبل. ولا سيما إذا كان الهالك من سادات القبائل^(٤). ويروى أنه كان يُعقر على قبر ربيعة بن مَكْنَمٍ في الجاهلية^(٥). وقد اعتذر أحدهم لتركه عقر ناقته على قبر ابن مَكْنَمٍ، فقال معتزلاً^(٦):

نَفَرْتُ قُلُوصِي مِنْ حَجَارَةِ حَرَّةٍ
بَنَيْتُ عَلَى طَلْقِ الْيَحْيَى وَهُوبٍ
لَا تَفْرِي يَا لِقَاقٍ مِنْهُ فَإِنَّهُ
شَرِيبٌ خَمْرٌ مَسْنَعٌ لِحُرُوبٍ
لَوْلَا السَّفَارُ وَبُعْدُ خَرَقٍ مَهْمَةٍ
لَتَرَكْتُهَا تَحْطُو عَلَى الْغُرُقُوبِ

فبلغ شعره بني كنانة، فقالوا: والله لو عقرها لسقنا إليه ألف ناقة سود الحنق^(٧). ولما مات عمرو بن حُصَمة الدؤسي، وكان ممن تتحاكم إليه العرب، مرَّ بقبره ثلاثة نفر من أهل يثرب قسامين من الشام.. فمعقروا وراح لهم على قبره^(٨). ووقف رجلٌ على قبر النجاشي فترجَّم وقال: لولا أن القول لا يُحيط بما فيك، والوصف يقصرُ ثونك لأطلبْتُ، بل لأسهبْتُ، ثم عقر ناقته على قبره، وقال^(٩):

(١) الألويسي، ج ٢، ص ٣١٠-٣١١. وانظر البيت الأول: فإذا مرزرتَ بقبره فاعقر به: كَوْمُ الْجَلَادِ وَكُلُّ طَيْرَتٍ مَسْبُوحِ النَوِيرِ، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣، ص ٣٢٦.

(٢) أبو سليمان، أنور، الإبل في الشعر الجاهلي، ج ١، ط ١، دار العلوم، الرياض ١٩٨٣م، ص ٢٣٢.

(٣) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ١٣٠.

(٤) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٦١.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ١٣٦.

(٦) النظر: الأصفهاني، الأغاني، ج ١٦، ص ٦٦، و ص ٧٢.

(٧) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٧٢.

(٨) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م): الأمالي، ج ٢، ط ٣، دار الكتب المصرية، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ١٤٣.

(٩) المبرك، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٤، ص ٧٤، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٧م.

عقرت على قبر النجاشي ناقتي

على قبر من لو أنني مت قبله

وقال رجل من بني أسد يرثي عمرو بن كلثوم، حين رأى قبسته تهتمت ويذكر عقر الجياد على قبره^(١):

أحق لهم أن يهتموا كل قبـة

وأن يعقروا كمت الجياد ووردها

وقد عقرت الخيل على قبر كليب أيضاً، كما ورد عند أمانة بنت كليب في قولها^(٢):

وعقرت الخيول عليه جهراً

وقال أحدهم يذكر قبر حاتم الطائي^(٣):

قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به

ولم يقر قبر قبلة قط راكبا

كما كانوا يوصون بالمقر على قبورهم حين يموتون، كما نجد ذلك عند جريبة بن الأشيم يوصي ابنه بأن يعقر على قبره يقول^(٤):

فمن مبلغ عني يساراً ورافعاً

فلا تنفئني في ضراً وانفئني

وإن أنت لم تعقر علي مطيتي

فلا قام في مال لك الدهر حالب

ومن مظاهر تقديس قبور الأسياذ حبس البلياء، فقد كانوا إذا مات الرجل يشدون ناقته إلى قبره، ويعكسون رأسها إلى ذنبها، ويغطون رأسها بوليّة وهي البرذعة، فإن أفلتت لم تردّ عن ماء ولا مرعى، ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك، ليركبها صاحبها في المعاد، ليحشر عليها، فلا يحتاج أن يمشي^(٥).

وهذا يشير إلى إيمان العرب في الجاهلية بالبعث وتجهيز الميت بالطعام والشراب والسلاح والمتاع والمبيد، كما سبق وذكرنا.

ولعل هذه الممارسة كانت تختص بالأسياذ وكبار القوم، وتظهر فكرة البلياء عند أبي زبيد الطائي في قوله^(٦):

كالبلايا رؤوسها في الولايا

ماتحات السموم جرّ الخدود

ويصف أعرابي كثرة ما يترك على القبور من بلياء، ليعث من فيها راكبين يوم الحشر، يقول^(٧):

فقلت لها سيري فما بك علّة

فمطك أو خيراً تركت رذيلة

كما كانوا يوصون أبناءهم بالبلياء خوفاً من أن يعثروا في الحشر راجلين، يقول عويمر النبهاني^(٨):

أبني لا تنس البليّة إنّها

لأبيك يوم نشوره مركوب

(١) انظر: عمرو بن كلثوم، ديوانه، ص ١٠٦.

(٢) أيمن محمد ميدان، شعر تغلب في الجاهلية، ص ٢١٧، معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٩٥م.

(٣) حاتم الطائي، ديوانه، ص ١٧٨.

(٤) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، ص ٤٥٣.

(٥) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣، ص ١٢١. وانظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٣٢.

(٦) أبي زبيد الطائي، شعره، ص ٥٦.

(٧) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ج ٣، ص ٣٠٦-٣٠٧، دار الجيل، بيروت ١٩٩٠م.

(٨) الألويسي، ج ٢، ص ٣٠٩.

وعند جريبة بن الأثيم الأسدي، وليل الفقسي يوصي ولده^(١):

يا سعد إما أهملكن فإلنسي أوصيك إن أخوا الوصاة الأكرُبُ
واحمل أبالك على بعير صالح وابغ الخطيئة إنه هو أصوبُ
ولعل لي مما تركست مطيئة في الحشر أركبها إذا قيل: اركبوا

وبالرجوع إلى عهد الفراغة نجد أن المقابر الملكية كانت تحتوي على جثث لرجال ونساء من حاشية الملك، وخمنه..الذين اضطحيوا معهم إلى العالم الآخر.. وتكشف هذه الطقوس عن اعتقاد المصريين بأن القوة الحيوية في الجسد الإنساني تستمر بعد الموت وتبقى على صلة بالجسد وبالعالم الأرضي بطريقة ما، من هنا جاء اهتمامهم بجعل القبر أقرب ما يكون إلى بيت تسكنه الأرواح أو تعود إليه من وقت لآخر بالتزود بالطعام...^(٢).

ومن المعتقدات الشائعة عند الشعوب القديمة استئزال المطر بواسطة الطقوس السحرية على عظام الموتى - كما أسلفنا - ومن الطبيعي أن تنسب هذه المزية بوجه خاص إلى عظام الأمراء الذين كثيراً ما ينتظر منهم أن يُزَلوا المطر وهم أحياء^(٣).

وقد مارس العرب منذ القدم هذه الطقوس السحرية، وقد روي أن عظام سلمان بن ربيعة الباهلي كانت عند أهل "بلنجر" في تابوت، فإذا احتبس عليهم المطر، أخرجوها فاستسقوا بها فسقوا^(٤).

قال ابن جمانة الباهلي يذكر قبر سلمان وقبر قتيبة بن مسلم^(٥):

وإن لنا قبرين: قبر بلنجر وقبرا على الصيبن يا لك من قبر
فهذا الذي بالصيبن عمت فتوحه وهذا الذي بالترك يسقى به القطرُ

ويتكرر في الشعر الجاهلي الذماء بسقيا القبور، إما إرضاء للهامة والصدى، لتهدأ الروح الحائرة وتستقر، وإما لاعتقادهم بأن الموتى يمارسون حياة عادية في القبر، فيعطشون ويشربون^(٦).

وكثيراً ما تنبت رياضُ الرياحين والمسك والعنبر من أثر المطر المُستَسَقَى ببركة السيد، يقول النابغة الذبياني في رثاء النعمان بن الحارث الغساني^(٧):

سقى الغيثُ قبراً بين بُصرى وحاسم بغيث من الوسمي قطرٌ ووابلُ
ولازل ريحانٌ ومسكٌ وعنبرٌ على منتهاء ديمة ثم هاطلُ
ويُنبتُ حوذاناً وعولاً مُسَوَّراً سائتعه من خير ما قال قائلُ

وقال حفص بن الأحلف الكنانِي يرثي ربيعة بن مكرم، داعياً بالسقيا على قبره^(٨):

لا يَبْعَدَنَّ ربيعةُ بنَ مكرم وسقى الغسادي قبره بَنُوبِ

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ص٢٣١. وانظر: الألويسي، ج٢، ص٣٠٩ مع اختلاف في بعض الأبيات. وعلي، جواد، المفصل في

تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦، ص١٢٩-١٣٠.

(٢) فراس السواح، الرحمن والشيطان، ص٦٥.

(٣) فريزر، أدونيس، ص٣٠.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص٤٣٣.

(٥) المصدر السابق، ص٤٣٣.

(٦) أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي، ص٨٠.

(٧) النابغة الذبياني، ديوانه، ص١٩٠.

(٨) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج٢، ص٩٠٥-٩٠٦.

ويقول قيس بن الخطيم في رثاء ريبة بن مكرم أيضا^(١):

من صوب كل مجلج وكاب
فسقى الغواذي رمتك ابن مكرم
وعند الخنساء رائية أخاها صخرأ، يقول^(٢):

سقى الله قبرك صوب الغمام
فروى القلب وروى الجفينا
ويدعو المهمل لقبر أخيه كليب بالمقيا، قائلا^(٣):

سقاك الغيث إنك كنت عيها
ويسرا حين يلتصم النصار
ويدعو متم بن نويرة بالسقيا لقبر أخيه مالك، وكيف أن هذه الأمطار التي هطلت على قبره روت الوديان وسقت الزروع وأنبتت الرياض، يقول^(٤):

سقى الله أرضا، حلها قبر مالك
ذهاب الغواذي المنجات، فأمرعا
فمخرق الأجرع من حول شارع
فروى جبال القرينتين فضلفعا

وأثر سئل الوائيتين بديمة
ترشح وسمنيا من التبت خروعا
وينكر ليبد بن ريبة قبر الأسياذ، قائلا^(٥):

فشيتمهم حمدا وزانست قبورهم
سراة ربحان بقاع مكرور
وعلى كل حال فقد كان موت الأعره والسادة خاصة يشكل مصيبة وكرثة على القوم، ويشترك في الحزن والمزاء قوى الطبيعة، التي يمثلها الميذ، حتى إن أوس بن حجر يصور حزن الشمس والقمر والكواكب - وهي عناصر معبودة عند العرب - على موت فضالة بن كعدة، قائلا^(٦):

ألم تكسف الشمس والنز وال
كواكب للجبل الواجب
لفقد فضالة لا تستوي الس
فقسود ولا خلة الذهب

ويتساءل الداهية متعجبا، كيف لا تتدك الجبال، ولا تتشق الأرض، ولا تزل نجوم السماء، ولا ينشق أنيمها، لموت حصن بن حنيفة، يقول^(٧):

يقولون "حصن" ثم تأبى نفوسهم
وكيف بحصن والجبال جنوب
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل
نجوم السماء والأكيم صحيح
فعما قليل ثم جاش نعيه
فبات ندي القوم وهو يلوح

وتظهر صورة الشمس والكواكب - الآلهة المعبودة - عند الخنساء، مشاركة حزنها وعزاءها في موت صخر، لتظلم الأرض من فقد، تقول^(٨):

وتظلم صورة الشمس والكواكب - الآلهة المعبودة - عند الخنساء، مشاركة حزنها وعزاءها في موت صخر، لتظلم الأرض من فقد، تقول^(٨):

وتظلم صورة الشمس والكواكب - الآلهة المعبودة - عند الخنساء، مشاركة حزنها وعزاءها في موت صخر، لتظلم الأرض من فقد، تقول^(٨):

(١) قيس بن الخطيم، ديوانه، تحقيق: ناصر الدين الأسد، ط٢، دار صادر، بيروت ١٩٦٧م، ص ٢٣٧.

(٢) الخنساء، ديوانها، ص ٣٥٢.

(٣) المهمل، ديوانه، ص ٢٩.

(٤) القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ج ٢، ص ٧٥١-٧٥٢.

(٥) ليبد بن ريبة، ديوانه، ص ٥٣.

(٦) أوس بن حجر، ديوانه، ص ١٠-١١.

(٧) الداهية النيباني، ديوانه، ص ٧٤. وانظر رواية أخرى للشطر الأول من البيت الثاني في ديوانه، بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ص ١٩٠.

(٨) الخنساء، ديوانها، ص ١٠٩.

فَزَالَ الْكَوَاكِبُ مِنْ فَقْدِهِ وَجَلَّاتِ الشَّمْسُ أَجْلَاهَا
وتتكرر صورة الشمس - الآلهة - عند المهلهل في رثاء أخيه كليب، يقول^(١):

لَمَّا نَعَى النَّاعِي كُلِّيًّا أَظْلَمَسَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَمَا تُرِيدُ طُلُوعَا
بل إن الأرض لا تستقر؛ حزنا لفقد كليب، يقول المهلهل^(٢):

نَعَى النَّاعِي كُلِّيًّا فَقُلْتُ لَهُمْ مَا نَدْتُ بِنَا الْأَرْضُ فَأَنجَابَتْ بَيْنَ فِيهَا
أَضْحَتْ مَنَارِلُ بِالسَّلَانِ قَدْ نَرَسَتْ تَبْكِي كُلِّيًّا وَلَمْ تَفْزَعْ أَقَاصِيهَا

وقد صور المهلهل في قصيدة طويلة حزن الكواكب جميعها في هذا الفقد، ومشاركتها الشاعر مصيبتها^(٣).
ولا عجب أن يكون ذلك التبجيل والتفديس للسيد عند العرب قبل الإسلام، فقد كان السيد يشكل الحجر
الأساس للقبيلة، وبموته ينهار بنيان تلك القبيلة، كما يصف عبدة ابن الطيب موت قيس بن عاصم، قائلا^(٤):

لَمَّا كَانَ قَيْسٌ مُلْسَكُهُ هُذُلًا وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُلَيْنٌ قَوْمُ تَهْمَا

(١) المهلهل، ديوانه، ص ٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٩١.

(٣) انظر: المهلهل، ديوانه، ص ٣٤-٣٧.

(٤) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج ٢، ص ٧٩٢.